يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

يوسف في القرآن الكريم
والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك – بناية الوهاد
تلفون : ٢/ ٣٥٠٧٢١
٣٤٥٤٦٠ – ٣٤٤٢٣٦
فاكس : ٥٢٢١٠٧ – ٠٠٣٥٧٩
تلكس : ELTOUP LE ٢٢٦٦١
ص.ب : ٨٣٧٥
برقيـــاً : انكلســامس
بيـــروت – لبنـــان

الطبعة الاولى
١٤١٥هـ-١٩٩٤م

تصميم الغلاف : عباس مكي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين طيات الكتاب

إن قصة يوسف، عليه السلام، كما جاءت في القرآن الكريم، تدور في اساسها حول محور العائلة، وتتناول العلاقات العائلية كنموذج للعلاقات الإنسانية الأوسع، وتبين بهذا الإطار، ما يكتنف هذه العلاقات من حسد وغيرة وطمع، ومن اجتراء على مشاعر القربى ومبادئ السلوك السليم. كما أنها تتضمن نوعا من « التمرد» على نظام الأبوية العائلية، ويتمثل هذا التمرد في تآمر الأخوة على الإبن المحبب إلى أبيه، وتحايلهم على أبيهم، وغشهم له، وكذبهم عليه، وهذا ما يحدّد السلطة الأبوية في واقع الحياة. لكن القصة تنتهي في تأكيد مجدد للولاء والصفاء العائليين لتبين أن التمرد على العائلة وعلى الأب جاء بأضرار وشرور لم تكن في الحسبان. بيد أن إعادة الوحدة العائلية تتحقق بفضل من الله تعالى، الذي اختار يوسف نبيا وصالحا وحلاّه بالأخلاق الحميدة، وجمّله بالتعالي عن الحقد والحسد وبالعفو عمن سبب له الأذى وقطع أوصال حياته، وبمبادلة الإساءة بالحسنى والإفاضة في هذه المبادلة. على أن ذلك يتم من خلال حوار عائلي يبين فيه يوسف باللطف وبالقسوة معاني الأخطاء والآثام التي ارتكبها اخوته ليأتي العفو مرتبطاً بهما. وبذلك، لا تضيع تلك المعاني في خضم النوايا الطيبة والعمل الصالح من جانب واحد.

ومن الملفت للنظر، أن هذا المحور العائلي يستمر حيث ينتقل يوسف من بيته - بيت أبيه وعائلته - إلى بيت سيد غريب عنه في بلد ليس بلده، وفي عالم غير عالمه. وكما أن الانتقال يتم في اطار جغرافي واجتماعي مختلف، فإنه يتم أيضا في مرحلة جديدة من مراحل حياته، اذ أنه انتقل الآن من الطفولة إلى الصبا والشباب واكتمال الجسم، وهذه مرحلة يرافقها تفتّح للعواطف والأشواق. وبينما كانت المرحلة السابقة من حياته العائلية بين اخوة له، وتحت مظلة أبيه، فإن المرحلة الحالية تشهد

أناساً غريبين عنه، كما تشهد أول لقاء له مع الجنس الآخر، المرأة. وهنا أيضا، وكما شهدنا في المرحلة الأولى، تتجه العلاقات في بادئ الأمر إلى الميل نحو الشهوة، غير أن الشهوة ما بين الرجل والمرأة هي ذات طبيعة مختلفة عن غيرها من الشهوات. وهنا نشهد بروز الجنس كعامل مهم من عوامل الحياة الانسانية. ويتبدّى التمرد نفسه الذي شهدناه في الاطار العائلي القديم على نظام العائلة، على السيد. والسيد هنا هو الزوج، والتمرد هنا هو على الحياة الزوجية نفسها، كما أنه يظهر كثورة عنيفة تكاد تجتاح يوسف نفسه، إلا أنه ينضبط تحت تأثير عاملين: العامل الأول هو مفهومه للعلاقات بين الرجل والمرأة، ذلك المفهوم الذي يستبعد الزنا والتحلل من قواعد العفة للرجل والمرأة سواء بسواء، اما العامل الثاني، فهو مفهوم الوفاء لسيد البيت الذي أكرمه واحسن معاملته، فوجب عليه أن يقابل العمل الطيب بمثله وان يمتنع عن أي اساءة أو أي أذى يلحق بهذا السيد، وقد يتحمل في سبيل ذلك الشيء الكثير. ويمكن القول إن هذه الحادثة ذات الطبيعة العائلية أيضا، كانت أول اختبار إلهي له على الطريق الشاق المؤدي إلى اكتمال تربيته وتأهيله الإنساني برعاية من الله عزّ وجل.

ويجب أن نذكر عند هذه النقطة، أن قصة يوسف تؤكد مبدأ الرفض القرآني القاطع للدعوة إلى الزنا. فالقرآن الكريم يوضح من ناحية، ما يعتبره الانسان شهوة حين يورد «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه» (٢٤، ،سورة «يوسف١٢»)، ولكنه يضع الفريضة الإلهية في العفة فوق كل الشهوات، ويلزم الناس جميعا بها. إن قصة يوسف ليست قصة انسياق وراء المرأة كما يظن بعض أعداء الاسلام، بل قصة تعال وتسام على ذلك، بحكمة إلهية «برهان ربه». وورود كلمة برهان في الكلام المنزل لوصف هذه الحكمة يدل على أن الأمر امتحان للانسان، وأن على الإنسان ان يُثبت بالبرهان قدرته على اجتياز هذا الامتحان. وهذا أمر مخالف تماما، لما تقوم عليه الثقافة الغربية الحديثة، التي أصبحت تبيح العلاقات الجنسية خارج الزواج، ولا ترى فيها ضيرا اخلاقيا أو قانونيا أو أدبيا أو معنويا.

وعدا عن خوض قصة يوسف القرآنية في مبادئ اخلاقية ملزمة كما هو مبين

اعلاه، فقد تطرقت إلى مسألة العلاقات الاجتماعية الأوسع خارج النطاق العائلي. وفي هذا الصدد، أبرزت بأن أول احتكاك اجتماعي هو الاحتكاك الذي تم بين يوسف وصاحبه في السجن، وإن هذا الاحتكاك هو الذي هيأ له الفرصة الأولى لاستخدام علمه السماوي في تأويل الاحلام.

وينتهي هذا التماس المجتمعي بدعوة فرعون ليوسف، بوصفه خبيرا في تفسير الرؤى، مما يتيح له الفرصة لإقامة علاقة مع صاحب السلطة العليا (أي فرعون)، غير أن القرآن الكريم لا يتحدث عن كيفية استثماره لهذه العلاقة الجديدة. وكل ما يشير إليه، هو أنه وضع مواهبه بتصرف صاحب السلطة لكنه استثمرها في خدمة بسطاء الناس، وفي التخفيف عنهم، وتوفير حاجاتهم الغذائية عن طريق التجارة.

وسوف تشكل تلك المواضيع وغيرها مادة للبحث في هذه الدراسة عن قصة يوسف القرآنية، التي تتبع بدراسة عن القصة نفسها الواردة بالتوراة.

د. زاهية راغب الدجاني

ربيع الثاني، ١٤١٣ هـ.

اكتوبر، ١٩٩٢ م.

المقدمة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

«إنّا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٢، ٣، سورة « يوسف»)

إن القرآن الكريم الذي انزل باللغة العربية على الرسول محمد (ﷺ)، قدم للانسانية قصة يوسف، عليه السلام، بهذه اللغة الرائعة. بيد أن القصة ذاتها عرضت في وقت سابق بالتوراة، وكانت باللغة العبرية وليست بالعربية. وعليه، فما أنزله الله تعالى من وحي على رسوله محمد (ﷺ) بصدد هذه القصة، كان ككل ما جاء في القرآن الكريم، وليس نقلا عن القصة الموجودة في التوراة. ومعنى ذلك، أن الله، عزّ وجل، قد ضمن القصة، كما جاءت في القرآن، المعاني والتفاسير التي لم تكن واضحة في الاصل التوراتي، وأن الله، عزّ وجل، قد أوصلها بنص جديد ضمن معانٍ جديدة. فلما كان متوقعا من المشركين الذين خالطوا اليهود ان يقولوا للرسول محمد (ﷺ)، إنه نقلها عن التوراة، فإن آية «إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» تدحض هذا القول، لتؤكد أن ما انزل على الرسول الكريم هو الوحي الذي يعطي المعنى الأزلي للقصة، والذي لا يوجد بالنص التوراتي. وبهذا الإطار، فالوحي اذن، هو المعنى وليس التسلسل في رواية الأحداث بشخصياتها وأماكنها، فالشخصيات الأساسية في القصة هي واحدة في القرآن والتوراة بوجه عام، لكن في حين أن الأحداث بشخصياتها واماكنها قد قدمت في التوراة كحكاية عادية من الحياة يمكن ان تحدث دائما، فقد خرجت عن هذا الاطار في القرآن، فالقصة القرآنية تقدم مفاهيم ازلية بصدد العلاقات العائلية والاجتماعية واثرها في حياة الأفراد، إضافة إلى مبادئ كثيرة اخرى تهم الجماعة الانسانية، ككل، في أزمنة وأمكنة عديدة.

والجدير بالذكر هنا، أن كثيرا من الاسرائيليات قد دخلت إلى التراث الإسلامي، وخصوصاً في اطار القصص القرآني، الذي لا مثيل له في التوراة، فقد اتخذ بعض المسلمين التوراة مصدرا لإكمال «فراغات» موجودة في القصة القرآنية. لكن الموقف الصحيح هو وجوب اعتبار تلك الفراغات مقصودة، وأن القصة كما جاءت في القرآن، مكتملة وغير منقوصة، مع أن المحاولة لاكمال الفراغات قد لا تتماشى في كثير من الأحيان مع المعاني الواردة في السياق القصصي القرآني، وتؤدي بالنتيجة إلى إعطاء مبادئ معاكسة.

فعلى سبيل المثال، عندما تحدثت القصة القرآنية عن ممارسة يوسف السلطة في مصر كمسؤول عن خزائن البلاد ـ ما قبل حدوث القحط وما بعده ـ فقد كانت توجه نحو ضرورة ممارسة السلطة بالحكمة والعلم، والتعقل، والعدل، والحزم، والرحمة وتضع يوسف كمثل أعلى في خدمة بسطاء الناس، والتخفيف عنهم، وتوفير ما يحتاجونه من طعام، لكن دون الخوض «بتفاصيل» عن اسلوب يوسف بالتعامل المالي مع هؤلاء الناس في وقت المجاعة. والمهم بالنسبة للقصة القرآنية هو المعنى الأزلي، والمعنى القرآني واضح بهذا الخصوص، لكن يبدو أن بعض المفسرين ظنوا أن إحضار تفصيلات مستوحاة، في كثير من جوانبها، من التوراة، بصدد تعامل يوسف مع الناس ابان حاجتهم القصوى إلى المعونة، قد يملأ فراغا في القصة القرآنية، فكانت النتيجة الإتيان بمعانٍ مخالفة للمضمون القرآني. ولإعطاء دليل على ذلك، نقرأ الفقرة التالية التي وردت في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

> ... فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك... فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط... فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم، وباعهم في السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب

والمواشي والأنعام حتى لم يبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف.... (١)

إن الفقرة لم تحتوِ على المعاني التي تضمنتها القصة القرآنية عن عدل يوسف ورحمته، بل تجاوزتها، حتى أصبحت عبارة عن صورة فظة لواقع ممارسة السلطة دون التفات منه إلى الشعب ومصالحه، ودون رأفة من جانبه بالانسان الكادح. لذلك يجب أن نؤكد هنا، أنه كان عكس ذلك تماما، فالقصة القرآنية تبين أن حكم يوسف جاء للقضاء على الظلم الاجتماعي الذي كان ساريا بمصر، والذي ذاق مرارته حين زج به في السجن لبضع سنوات بتهمة زور، فالذي يُظلم - بكل علمه السماوي وحكمته وتعقله - لا يَظلم، فكيف له اذن، ان يفعل ذلك وهو يتولى منصب خزائن البلاد، والناس بحاجة ماسة إلى عدله ورأفته بهم؟ وكفى ان نقرأ الآيتين الكريمتين التاليتين لندرك مدى عدل يوسف المرتبط بالعلم والصدق:

«قال اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم. وكذلك مكّنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين» (٥٥، ٥٦ سورة «يوسف»)

إن كلمة «حفيظ» هنا، تشير إلى تعهد من جانب يوسف للقيام بواجباته كمسؤول عن خزائن مصر بكل أمانة وصدق. ومن جانب آخر، فكلمة «عليم» تشير إلى أن تعهده هذا قائم على علم ومعرفة بحسن التدبير، من حيث تخزين الغلة الفائضة في سنوات الخصب، لسنوات القحط القادمة إلى مصر. وتجدر الاشارة

هنا، إلى أن الشخص الأمين الصادق في عمله، لا يمكن إلا ان يكون عادلا في تصريف الأمور. كما أن الشخص المخلص والعالم بحقائق الأشياء وبواطنها، لا يمكن إلا ان يكون عادلا أيضا، فالعدل إذن، مرتبط بالأمانة والصدق والعلم الصحيح. هذه التركيبة، بحد ذاتها، تدعو من يتحلى بها إلى حفظ حقوق الغير، وعدم استغلالهم، بأخذ مالهم أو مواشيهم أو أرضهم ثم استعبادهم بسبب الظرف التاريخي الصعب. وبهذا كله نرى أن إكمال الفراغ في قصة يوسف القرآنية، بالرجوع إلى بعض المبادئ التوراتية، قد أدى فعلا إلى نتيجة عكسية، اما بالنسبة لموضوع استثمار مواهب يوسف وعلمه في خدمة الشعب، بعدل ورحمة (راجع الفصل الثامن، التاسع والخاتمة).

ويجب ان نضيف هنا، أن مسألة إكمال بعض الفراغات في القصة القرآنية لم تقتصر على الأخذ من التوراة من قبل بعض المفسرين المسلمين، بل خضعت احيانا، لخرافات ادخلت على الدين من قِبل آخرين منهم، بحيث تعارضت كل المعارضة مع مبدأ «العقلانية» في الإسلام. وبهذا، فقد تسبب إدخالها في توجيه الانتباه نحو أمور جانبية، لا جدوى منها، بدلا من التوجيه نحو الجوهر. فمثلا، لقد اغرق بعض المفسرين في إحضار حكايات خيالية مفادها، أن يوسف قد تزوج من امرأة العزيز ـ التي كانت قد راودته عن نفسها في وقت ما ـ بعد خروجه من السجن. ولا بأس ان نحضر بعضاً منها الآن، كما عرضت في كتاب «الدر المنثور في التفسير المأثور» لجلال الدين السيوطي:

> .... أن أطيفر (العزيز) هلك في تلك الليالي وأن الملك الريان زوج يوسف عليه السلام امرأته راعيل فقال لها حين ادخلت عليه أليس هذا خير مما كنت تريدين فقالت أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناء... وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له

> رجلين... (وقيل أيضا) تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام في الطريق حتى مرّ بها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيته عبيدا أو جعل العبيد بطاعته ملوكا. فعرفها فتزوجها فوجدها بكرا وكان صاحبها من قبل لا يأتي النساء.... (٢)

إن قصة يوسف القرآنية لا تحتوي على أي اشارة بصدد زواج يوسف من امرأة العزيز بعد سجنه لبضع سنوات. فالقرآن لا يقدم قصة حب تنتهي بالزواج بعد متاعب، كما هو الحال في كثير من القصص الصادرة عن الأدباء وغيرهم، لكنه يعرض مشكلة خروج صنف من النساء (امرأة العزيز على الأخص) عن كل قواعد الفضيلة بسبب سيطرة السلائق الحيوانية عليهن. وعليه، يبين أثر ذلك في فقدانهن لحيائهن وكرامتهن، ومن ثم عدم تورعهن عن اللجوء لأي كيد يصل بهن إلى تحقيق رغباتهن في الشهوة. وبناء على ذلك، قررت القصة الحقائق التالية: أولا، إن الحب شيء غير الجنس، ثانيا، إن إباحية الجنس مرفوضة بشكل قطعي في الإسلام، ثالثا، إن هنالك قواعد أخلاقية تلزم الناس في تعاملهم، أهمها مبادلة الجميل بالجميل، وعدم التعدي على حرمات الصديق. إذن، فالهدف من الحكاية «توجيهي» بكل معنى الكلمة، ويجب أن نذكر هنا، أن قصة يوسف القرآنية قد عنيت بإبراز جمال العلو الروحي والأخلاقي (يوسف هنا) مقابل قبح الإنحدار بالنفس البشرية عند تحكم السلائق الحيوانية فيها (امرأة العزيز). على أنه بالا، تمام بزاوية السمو الروحي، تطرقت تلك القصة إلى موضوع «مجاهدة» النفس لتحصينها ضد الإغراء، ومثال على ذلك، فقد بينت أنه، عندما تكاثر إغراء النساء من حول يوسف، وهو صامد يرفض أي دعوة لا اخلاقية من جانب امرأة العزين، هددته بوضعه في السجن، فتقبل الفكرة، على الرغم من علمه بقسوة حياة السجن وقيودها التي هانت أمام عينيه، مقابل قيود الميل للمرأة، والاستسلام للهوى، مما يبين بشاعة الرضوخ للشهوة وعواقبها في المجال الروحي:

«قال رب السجن احب إليّ مما يدعونني إليه والا تصرف عني كيدهن اصب إليهن وأكن من الجاهلين»
(٣٣، سورة «يوسف»)

وبالتوكل على الله تعالى، دخل يوسف السجن وقد اشاع العزيز (صاحب السلطة) في البلاد، بأن وضعه في السجن كان نتيجة مراودته لامرأته. وبهذا تجسد الظلم في أكبر مظاهره، فأحدث انقلاباً بالموازين، بريء اتهم زورا وبهتانا وسجن، وامرأة مذنبة بقيت تصول وتجول في المجتمع. ولكن على الرغم من معاني الظلم هذه، فإن تقبل يوسف لفكرة السجن من منطلق الظروف المحيطة به وقتئذ، يدل على قوة ارادة وسعي نحو نيل الجزاء الحسن بتأييد من الله عز وجل، على أن ذلك يؤكد بدوره أن مسؤولية الاعمال تقع على عاتق الانسان في المجال الروحي. ومن هذه الزاوية، نرى أن قصة يوسف القرآنية دخلت موضوع «القضاء والقدر» مبينة أنه اذا عزم الانسان على امر خيّر، ثم توكل على الله تعالى، بلغ غايته في الفوز والنجاح بفضل من رب العالمين. فالله بجلاله قد مكن يوسف في الأرض بعد صبر ومعاناة وطول انتظار في السجن. لكن بالمقابل، تؤكد القصة القرآنية على أن ما يصيب الانسان من مكروه فبما كسبت يداه، فقد بيّن السياق القصصي أن الايام دارت على امرأة العزيز، وامتثلت، بطلب من يوسف، للمحاكمة من قبل فرعون، لإظهار براءته أمام الجميع، واضطرت بالنتيجة وفي جلسة مهينة لها، إلى الاعتراف بما فعلته. وبإبراز هذه الحقائق بالنسبة لمبدأ المسؤولية الفردية، فالقصة تقرر أن الخير كله من عند الله عز وجل، في حين أن الشر والضلال من عمل الانسان الذي ينصت إلى الوساوس الشيطانية. وطبيعي، عندما تتحدث القصة القرآنية عن الخير والشر، ان تتطرق إلى موضوع «الابتلاء» وعلاقته بخلق الانسان. فالله تعالى قد خلق الموت والحياة لكي يبتلي الناس، ومن ثم يجازيهم بموجب أعمالهم يوم الحساب. فإذا عصوا الله تعالى، فعقابهم شديد، لكن لو التزموا بالبر والتقوى والطاعة له وحده، فسوف ينالون الجزاء الحسن في الآخرة، لأن الحياة الاخرى هي دار البقاء.

من كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف القرآنية تحوي في ثناياها كثيراً من لبادئ الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والنفسية، مع العلم أن كل هذه لبادئ ترسم الطريق لنيل السعادة المرجوة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التكامل فكري يشكل احد أهم العوامل الرئيسية، في إعطاء ميزة خاصة لتلك القصة بين قصص القرآنية الاخرى. ومن السمات الخاصة بقصة يوسف القرآنية، افتتاحها رؤيا تنبئ بعلو مستقبلي واسع المدى ليوسف، ثم اختتامها بتحقيق الرؤيا في جال الواقع البشري، مع اشتمالها على احداث كثيرة ما بين البداية والنهاية.. عضها عاصف وأليم وموجع بالنسبة ليوسف، وبعضها الآخر خيِّر وباعث على لسلام والاستقرار له.. بالنتيجة هدوء بعد عواصف لا يتحملها إلا اولو العزم شدتها وهولها. وبهذا الإطار الذي يحمل مقدمة وأحداثاً كثيرة في الوسط ثم خاتمة، نرى أن القصة اختصت بتتبع كليٍّ لحياة يوسف، جاء وصفه كالآتي من قبل سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»:

> إن القصة تعرض شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ وهي الشخصية الرئيسية في القصة ـ عرضا كاملا في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك الشخصية... وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا.... (٣)

وعدا عن يوسف، فقد ركزت القصة على شخصيات قريبة منه بحكم النسب، واخرى محيطة به. وطبعا،أولى هذه الشخصيات والده يعقوب عليه السلام، الذي أبرزته القصة في بدايتها الأب الحنون العطوف المحب ليوسف، الخائف عليه من كيد

اخوته له، وفي نهايتها الأب الذي عانى معاناة شديدة بسبب ضياع ابنه يوسف، لدرجة فقدانه أو شبه فقدانه بصره. بيد أنه مع عظم الخطب مما جرى له، فقد رُد بصره بالنتيجة، وردت إليه القوة والحياة عندما وضع قميص يوسف على وجهه. إذن، ومثل يوسف، فقد حصل الأب، ثانية، على الاستقرار بعد عواصف هوجاء في بيته وحياته.

ومن الشخصيات الذين تجمعهم صلة الدم بيوسف، أخ له من أمه وأبيه، ثم اخوة عشرة له من أبيه، وهؤلاء الاخوة من الأب يقفون كنماذج للحاسدين، الذين دفع بهم بغضهم لأخيهم بتدبير مكيدة له، ادت في البداية، إلى رميه في قاع البئر. ولكن مع مرور الزمن فقد تابوا واصلحوا، وتغيرت الصورة عنهم بحكم تغير الظروف بنجاة يوسف ثم بعلوٍ كبير له، ولشعورهم بالذنب الذي اقترفوه ضد أخيهم. وفيما عدا ذلك، فهناك شخصيات اخرى في القصة تتضمن العزيز وزوجته، نسوة المدينة، فرعون، صاحب السقاية ثم صاحب الطعام لفرعون. وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هؤلاء في المتن. (راجع الفصل الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، والسادس).

بناء على كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف غنية بتقديم أنواع من الشخصيات، التي تقف كنماذج متعددة لأبناء البشر، الذين يوجد بينهم الخيِّر الذي يُحتذى به، والشرير الذي يُتعظ منه. إن هذا الثراء في مجال الشخصيات في القصة، إلى جانب المبادئ الأزلية الكامنة وراء تلك الشخصيات، التي تحدثنا عنها سابقا، إضافة إلى الأداء الفني بها كما سيرى القارئ فيما بعد، أضاف الكثير إلى المعرفة الانسانية مثل: الأدب العربي، علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، علم الحضارة، وعلم الأخلاق. إن كل هذا الثراء الذي تحمله تلك القصة في طياتها يشكل دليلا دامغا على الإعجاز القرآني من حيث المعنى والاسلوب. وهذا امر هام للغاية، لأن إثبات الإعجاز القرآني يمثل الطريق الأساسي لإثبات صحة أو صدق الوحي، علما، أن قصة يوسف ركزت على هذا الموضوع الهامّ للغاية، في بدايتها وفي نهايتها، من خلال الآيات القرآنية التالية:

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٣، سورة «يوسف»)

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم اذا اجمعوا امرهم وهم يمكرون، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (١٠٢، ١٠٣، سورة «يوسف»)

ومن الجدير بالذكر، عند هذه النقطة، أنه في الوقت الذي تسخّر فيه أقلام كثيرة معادية للاسلام «للتشكيك» بالقرآن الكريم، من خلال نفي صحة الوحي عنه، تساهم هذه الدراسة في دحض تلك الأقوال بالدليل والبرهان والحجة الدامغة. هناك في عالم الغرب اصرار على ما يطلق عليه احيانا مصطلح «التفتيش عن عدو» باعتبار أن مثل هذا التفتيش هو وسيلة لتعميق الوحدة للجانب الذي ينازل عدوا. وبهذا المفهوم، فقد دخل الغربيون إلى العالم الإسلامي من خلال ثورة مصطفى كمال أتاتورك المعادية للإسلام بعقيدته القرآنية. وقد يكون التفتيش المستقبلي في مجالات متشابهة أو متعمقة كتجربة مصطفى كمال، والتمهيدات واضحة من خلال الدعوة لتعطيل القرآن الكريم. ومن هنا، نأمل ان تساهم دراستنا الحالية في حماية القرآن من التعطيل، ومن ثم حماية العالم الإسلامي من التفكك والانهيار، والذوبان في الاتجاهات العلمانية التي ذهب إليها مصطفى كمال.

تحتوي هذه الدراسة على احد عشر فصلا، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، تغطّي تسعة فصول، منها قصة يوسف القرآنية، أما الفصلان الاخيران، فيغطّيان القصة التوراتية من حيث التعريف، ومن حيث اظهار مواطن الشبه والاختلاف بين تلك القصة، وبين القصة القرآنية.

وفي الوقت نفسه، تعنى الخاتمة أيضا، بإتمام المقارنة بين القصتين. وفيما يتعلق بالمصادر، فدراستنا الحالية تستقي معلومات من كثير من المصادر القديمة والحديثة في حقل التفسير القرآني وغيره. كما تعتمد على الاجتهاد الذاتي في كثير

من أجزائها، وتعنى عناية خاصة بإبراز أزلية الأفكار القرآنية الواردة في القصة، مؤكدة صلاحية تلك الأفكار لكل زمان ومكان.

فعسى أن يوفقنا الله تعالى في سعينا هذا.

الهوامش

١ ـ البيضاوي، والنسفي والخازن وابن عباس، **كتاب مجموعة من التفاسير** (بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت.)، ص ص. ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

٢ ـ جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور** (بيروت: دار المعرفة، لا. ت.)، ص. ٢٥.

اضافة إلى ما تقدم ذكره عن مسألة زواج يوسف من امرأة العزيز، فقد ورد ما يلي:

> (قيل) اصابت امرأة العزيز بزجاجة فقيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألتيه فاستشارت الناس في ذلك فقالوا لا تفعلي فإنا نخاف عليك قالت كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله فدخلت عليه فرأته في ملكه فقالت الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته ثم نظرت إلى نفسها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكرا فقال لها أليس هذا أجمل مما أردت قالت يا نبي الله إني ابتليت فيك بأربع كنتَ أجمل الناس كلهم وكنتُ أنا أجمل أهل زماني وكنت بكرا وكان زوجي غنياً....

المصدر نفسه، ص. ٢٥.

٣ ـ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، المجلد ٤ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، ص ص. ١٩٥١ـ١٩٥٢.

الفصل الأول

يوسف في بيته: المكيدة

إن «قصة يوسف عليه السلام مع اخوته» تحمل كثيراً من المستغربات التي تتصل بجوهر النفس البشرية على مدى الأزمنة والأمكنة. فهي تتحدث في كثير من أجزائها عن أنواع شتى من المكائد التي جابهت يوسف في المراحل الأولى من حياته. ومع أن تدبير مكائد تنتهي بعواقب وخيمة لأخٍ من قبل اخوته، امرٌ عجيب، فإن الأعجب من ذلك ان تُحاك مثل هذه المكائد في بيت نبي كريم، لكن يبدو أن هذه الظاهرة تحمل عِبَراً ودروساً للبشرية، فهي تذكّر الانسان بأنه طالما وجدت في وقت ما من التاريخ مكائد في بيت نبي كريم، فإنه لا داعي عندئذ للفزع أو اليأس حين يجابه مكائد مشابهة لِما تمّ تدبيره ضد يوسف من قِبَل اخوته. فالفئة التي تبني قواعد حياتها (ولو لفترة محددة كما كانت الحال مع الاخوة قبل التوبة) على أسس نفعية دنيوية دون اقامة وزن لمسألة الأخلاق، لا يتورع أفرادها عن عمل أي كيد لصالحهم. ولكن هذا الاتجاه يذكّر الانسان بأن حياتنا الدنيوية مبنية على النقص لوجود الشر فيها إلى جانب عنصر الخير وذلك بحكم التوجهات الفكرية والنفسية. على أن كل ذلك يرمي إلى إخراج الانسان من الاعتقاد بوجود «مثالية» مطلقة أو «كمالية» على وجه الأرض إلى عالم الواقع ليعيش وهو يدرك تماما أن حياته لن تكون كلها سعادة ولن تكون كلها شقاء، بل جامعة لكليهما. واذا تكيف مع هذه الفكرة، فلن تهزه المكائد، بل سوف تزيده قوة وهو يجابهها بشجاعة وعلم، مستمدا العون من السماء. والجدير بالذكر، أن ما تحمله قصة يوسف من دروس هو خير مصداق عملي على ذلك.

إن قصة يوسف تحتوي على عدة مشاهد حدثت في أكثر من مكان، وقد تناولت المسرح العائلي في الجزء الأول من تلك المشاهد، حيث جرى التركيز فيها على روابط سماوية دنيوية من خلال الكشف عن رؤيا يوسف، ثم على أمور دنيوية تربط بين التوجهات الذهنية والنفسية من جهة، وبين تدبير الكيد من جهة أخرى، مبيّنة أثر

ذلك على من تمّ التدبير ضده. وبالنسبة للمشهد الأول من القصة، فقد عرض كالتالي:

المشهد الأول

في زاوية بيت من أشرف بيوت أبناء البشر جلس النبي يعقوب عليه السلام مع ابنه يوسف في حلقة حوار مثير للدهشة والعجب.. فالحوار كان يجري بين الأب وابنه الصغير من حيث السن، وليس بينه وبين أولاده الكبار من حيث العمر، مما يشير إلى نضوج مبكر في تفكير يوسف. وما يؤكد ذلك، إبلاغه لوالده عن رؤيا ظهرت له في منامه. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن «الرؤيا» كمصطلح تعنى بتزويد الإنسان، الذي يتحلى بصفاء الروح ونقاء القلب، بأسرار وخفايا متصلة بمجرى حياته. لكن الغريب في أمر يوسف، أن الرؤيا ظهرت له في سن مبكرة، مما يؤكد على أنه كان انسانا غير عادي، ومؤهلاً للنبوة والمستقبل العظيم. أما رؤياه فقد ورد نصها كالآتي في القصة القرآنية:

> «إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» (٤، سورة «يوسف»)

توحي هذه الآية بأن حديثا مطولا كان يدور بين يوسف وأبيه بدليل استخدام «اذ» للاستئناف في هذا الموضع. ولكن اقتطع منه الجزء الأهم المتعلق بنص الرؤيا المقدمة في إطار رمزي أخاذ، يجمع فيه بين الطبيعة والانسان من حيث الخضوع لله تعالى، خالق السموات والارض وكل ما فيهما. وقد ورد في بعض كتب التفاسير، أن الأحد عشر كوكبا يقفون كرمز لاخوة يوسف في حين أن الشمس والقمر يقفان كرمزين لوالديه. على أن سجود كل هذه الظواهر الطبيعية ليوسف يعني التعظيم له من قبل «كل» أفراد عائلته، لمنزلة «ومكانة» روحية ودنيوية سيحظى بها في وقت لاحق.

ولكن كيف كان رد فعل يعقوب بعد ما فرغ من استماعه لنص رؤيا يوسف بكل

معانيها المشرقة؟ من الواضح أن الأب شعر بخوف على يوسف من اخوته. ففي الوقت الذي انصبّ فيه اهتمام الاخوة على نيل شهرة دنيوية كما يبدو، كان وجود يوسف بتميزه الذهني منذ صغره، يهدد تطلعاتهم تلك. وبما أن الرؤيا تبشر بمستقبل زاهر ليوسف، فمعرفتها من قبل الاخوة كانت لا بد وأن تثير فيهم الحسد نحوه، بكل ما يتولد عن ذلك من شروع بتدبير المكائد ضده. وهذا ما يفسر النهي الصادر عن يعقوب ليوسف بعدم إبلاغ اخوته برؤياه كما ورد بالآية الكريمة التالية:

«قال يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين» (٥، سورة «يوسف»)

في حين أن كلمة «يكيدون» تعني القيام بتدبير شرّ من قبل اخوة يوسف له في حال علمهم بالرؤيا، فإن كلمة «كيدا» تؤكد ذلك مشيرة إلى الإحكام في كيدهم لو حصل. و «الإحكام» كتعبير يعني وضع خطة تضم مراحل عدة، وتُنفذ من خلال أساليب متعددة قد تتراوح بين استخدام اللين واستخدام العنف لتحقيق الهدف، دون اعتبار للشعور الإنساني، أو حتى لقرابة الدم. وهذا ما فعله اخوة يوسف به، والذي ستثبته الأحداث في وقت لاحق. وبما أن مثل ذلك الكيد مؤذٍ جدا بطبيعته، فقد ربطته الآية القرآنية بالشيطان «إن الشيطان للإنسان عدو مبين». فحين يبغض انسان انسانا آخر من منطلق الحسد، يتدخل الشيطان كي يؤجج نار البغض في نفس الحاسد، ويدفعه لفعل أي مكروه ضد المحسود. ولكن مهما واجه الشخص البريء المحسود من ضرر، فالنصر بالنتيجة حليفه، لأن سنن الحياة مبنية على إرساء قواعد الحق ومحق الباطل. والفرج الآتي من السماء يتبع صبر الإنسان على الشدائد والملمات، وهذا ما حصل ليوسف الذي خصّه الله تعالى بالنبوة والمعرفة المتطلبة لتأويل الرؤى فيما بعد، مُتمّماً بذلك نعمته عليه وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويه، من قبل، ابراهيم وإسحق، وقد جاء في قوله الكريم:

«وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من

قبل ابراهيم واسحق إن ربك عليم حكيم» (٦، سورة «يوسف»)

وبهذا التعظيم ليوسف من أول المشهد ـ الذي يلقي الأضواء على حاضره ثم على مستقبله ـ حتى نهايته، يسدل الستار عنه، ليكشف النقاب في مشهد آخر عما جرى ليوسف بعد الجلسة المذكورة أعلاه مع والده. فالصورة تركز الآن على واقع الحاضر في حياة يوسف، وبذلك، فالقصة تزدهي بانتقال سريع من فترة زمنية لأخرى: من الحاضر إلى المستقبل ثم العودة إلى الحاضر. على أن هذا الانتقال السريع المصطحب بعنصر التشويق، يبرز احد مظاهر الإعجاز في تلك القصة من حيث المعنى والمبنى معا.

المشهد الثاني

وفي غمار بحر التشويق هذا، يتوجه السياق القصصي الآن، لكي يحث الإنسان على ضرورة التأمل والتفكير بما جرى ليوسف من قبل اخوته بقصد الاتعاظ. وبذلك، فقد اجتمع عنصر التشويق بالاضافة إلى عنصري الاثارة الفكرية والوجدانية، مما يشير إلى مظهر آخر من مظاهر الاعجاز القرآني:

«لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين» (٧، سورة «يوسف»)

وما أن يصب اهتمام القارئ أو السامع على القصة، لمعرفة ما سيأتي من أحداث، حتى يكشف السياق عن اجتماع بين الاخوة بصدد التعبير الموحّد عن شعورهم بالتذمر نحو الاب ويوسف واخيه. اذن، وعلى عكس الاجتماع الذي اتخذ طابعا فكريا بين يوسف وابيه، فقد ظهر الاخوة الآن في اجتماع آخر، بطابع سلبي، يوحي بإعداد المكيدة ليوسف، وهم يرددون ما ورد بالآية التالية:

«اذ قالوا ليوسف واخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين» (٨، سورة «يوسف»)

ان طابع العدائية، بشكل أو بآخر من قبل الاخوة، يتجلى في استخدامهم لكلمة «عصبة». والعصبة في اللغة تشير إلى الجماعة التي قد تكون مؤلفة من تسعة اشخاص إلى أربعة وأربعين تقريبا. لقد ظن الاخوة، كما يبدو، أن كونهم جماعة يعطيهم الأحقية للاستئثار بحب والدهم الذي من خلاله قد يتمكن احدهم من خلافته بالسيادة، لمنزلته العظيمة بين القوم. ولكن بما أن يوسف بالذات هو الذي نال ثقة والده لتفوقه كما ذكر سابقا، فقد ذهب الاخوة لوصف أبيهم بالضلال، والضلال هنا، لا يعني بأي شكل كان، الانحياز عن الحق - فالاخوة يعلمون أن والدهم نبي - لكنه يعني إعطاء الأفضلية ليوسف وأخيه. على أنهم بهذه النظرة التي تحمل في ثناياها حسدا جارفا لأخويهم، انطلقوا يدبرون مكيدة ضد يوسف بهدف التخلص منه لإفساح المجال لهم للاستئثار بحب والدهم. وكانت أول مرحلة من المكيدة تتضمن ما يلي:

«اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم
وتكونوا من بعده قوما صالحين» (٩، سورة «يوسف»)

إن فكرة القتل، كأول وسيلة للتخلص من يوسف، لفكرة مخيفة إلى حد تهزّ الوجدان هلعا، والفؤاد ذعرا من فداحتها.. لأن القتل المبني على الظلم إثم محرم، كما ورد في قوله الكريم:

«ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق» (١٥١، سورة «الانعام»)(٦)

إن تلك الفكرة وما تحمله من قسوة طبع، تكشف عن مدى الخطر المنبثق عن البغض والحسد في حال استفحالهما، وتنبه في الوقت نفسه، إلى ضرورة الحذر والحيطة في حال وجودهما. وإلى جانب فكرة القتل، التي تمثل الحد الأقصى في عالم المكائد، فقد تقدم الاخوة بفكرة طرح يوسف على الأرض، وهي الفكرة التي تبدو أكثر اعتدالا بالرغم من خطورتها أيضا. ومهما يكن، فسواء تم الاختيار النهائي للفكرة الأولى أو الثانية مع تعديل عليها؛ فالاخوة ظنوا أن سعادتهم لن تتحقق إلا

بعد التخلص من يوسف، لاعتقادهم بأن التوبة ستبرّر، في وقت لاحق، ما فعلوه، ولكن كما يقول سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»:

> وليست التوبة هكذا. إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر؛ حتى اذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة. أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!(١)

وعند هذه النقطة، يجب أن نذكر أن وجود اقتراحين يراوحان بين التطرف والاعتدال للتخلص من يوسف يشير إلى نوع من الاختلاف بالرأي بين الاخوة. ومع وجود متطرفين منهم وهم الأكثرية، فقد وجد من هو معتدل يشجب فكرة القتل:

> «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجَب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين» (١٠، سورة «يوسف»)

فهذا احدهم، ويقال في كتب التفاسير، إنه الأخ الأكبر سنا أو قدرا يتبنى فكرة رمي يوسف، ولكن ليس في الفلاء أو في الصحراء، رغم كل الخطورة الكامنة في هذا العمل، بل يقترح رميه في قاع البئر لإفساح المجال له للعيش عند التقاطه من بعض السيارة لكن دون الشعور بالرضا لفكرة التنفيذ كما يظهر من تعبير (إن كنتم فاعلين) الذي قال بصدده سيد قطب في المصدر السابق، أنه يحمل في طياته:

> روح التشكيك والتثبيط. كأنه يشككهم في أنهم مصرّون على ايقاع الأذى بيوسف. وهو اسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا أقل ما يشفي حقدهم؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه....(٢)

ومع هذه النقطة، ينتهي مشهد الإعداد للمؤامرة لتدخل الأحداث الآن مرحلة التنفيذ، التي انتهت برميه في قاع البئر، كما سيتجلى في المشهد الثالث من هذا الفصل.

المشهد الثالث

يبتدئ المشهد هذا بالآيتين التاليتين:

«قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون» (١١، ١٢، سورة «يوسف»)

إن أول مشكلة واجهت الاخوة على ما يبدو، هي مشكلة عدم ثقة والدهم بهم، الذي كان يعلم بنواياهم السيئة نحو ابنه يوسف. وعليه، فقد كان طبيعيا ان يوجّه هؤلاء جوهر اهتمامهم نحو نيل تلك الثقة قبل أي شيء آخر. ومن المعلوم أن كسب ثقة شخص بآخر عند فقدانها، قد يتم من خلال العمل الجاد النافع، الذي يحمل معه نية طيبة في حال الجدية، على إعادة التثبيت، بيد أنه عند السعي لاستعادة ثقة مفقودة لهدف وصولي أو انتهازي، لا بد من اللجوء إلى الحيلة. وهنا يتوجه الشخص أو الفئة المعنية بالأمر إلى التودّد المصطنع للشخص المراد كسب ثقته، وذلك عن طريق مخاطبته بالألفاظ الرقيقة، والأسلوب العذب الذي يوهم بالسلامة في النية، لأن مثل هذا الاسلوب قد ينجح فعلا مع الشخص البسيط، الذي لا ينظر للأمور بعمق، ولكن يستصعب نجاحه مع الشخص الحذر الذي يفهم حقائق الأشياء ببصيرته. أما بالنسبة ليعقوب كنبي يتمتع بعلم عظيم، وحس مرهف، ومعرفة لتجارب الحياة، لم يكن سهلاً تقبّله التودّد المفاجئ من قبل أبنائه نحو يوسف، حين أظهروا حرصا شديدا عليه وعلى سلامته وراحته، وطلبوا إرساله معهم في الغد لكي يرتع ويلعب في الصحراء، ويملأ نفسه بهجة وسرورا. وكردٍّ على اتجاههم الجديد، وطلبهم هذا، ورد على لسان يعقوب ما يلي:

«قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب

وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا اذاً لخاسرون» (١٣، ١٤، سورة «يوسف»)

إن جواب يعقوب على طلب أبنائه بشأن يوسف يدل على عدم ثقته بهم من حيث رعايتهم له، على الرغم من المداهنة نحوه. فيعقوب كما تظهره الآية «١٣» لا يشعر بالراحة والاطمئنان نحو طلبهم بأخذ يوسف معهم إلى الصحراء، وذلك من منطلق خوفه عليه من ذئب يأكله في حال غفلتهم، التي يبدو أنها كانت متوقعة من يعقوب حتى هذه اللحظة. ولكن لنفي فكرة يعقوب هذه، فقد لجأ الاخوة لأسلوب نفسي مؤثر يرمي لإحراج يعقوب والضغط عليه، لنيل المراد، فقالوا لأبيهم لو تمكن الذئب من افتراس يوسف وهم عصبة قوية، فلا يرجى منهم أي خير عندئذ. أو بالأحرى، فقد ربطوا خسارة يوسف، في حال حدوث ذلك، بخسارة سمعتهم. وإزاء ذلك، استسلم لهم الأب الحذر، فالأمر، كما يبدو، خرج هذه المرة عن مقدوره لحكمة سماوية. فماذا حصل بعدئذ؟ هذا ما ستكشف عنه الآية التالية:

«فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون» (١٥، سورة «يوسف»)

ومع وصول الأخوة إلى البئر تم الاتفاق النهائي على تنفيذ المخطط برمي يوسف في قاع البئر عند ساعة مظلمة دون الشعور بالانسانية. واسلوب الرمي هذا، فقد جاء وصفه كالتالي في كتاب «تفسير القرآن العظيم» لإبن كثير:

إن يعقوب عليه السلام لمّا بعثه معهم ضمّه إليه وقبله ودعا له وذكر السدى وغيره. إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا ان غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلّوه فيه، فكان اذا

لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، واذا تشبث بحافات البئر ضربوه على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة كانت في وسطه.... فقام فوقها.... (٣)

إن هذه الفقرة تعطي صورة حية عن حقيقة الوجوه الحاسدة بعد نيل المراد، مبرزة خطورة التمثيل المتجسد في عالم المكائد. لقد انقلب الإدعاء بالود ليوسف إلى صفعات له، وعاد الوجه الابيض المصطنع إلى اصله، وبرزت الأنياب، وانقلبت الابتسامات إلى حالة من العبوس، وامتدت الأيدي لتضرب يوسف، وتحول بينه وبين الدفاع عن النفس، وتقطع الحبل به بكل غلظة قلب وقسوة فؤاد. ولكن كيف يمكن أن يكون شعوره في تلك اللحظات الرهيبة التي سبقت نزول الوحي عليه للاطمئنان؟ هذا ما يسكت عنه السياق للأحداث. فالقرآن الكريم يقدم الأحداث أحيانا بإيجاز، وذلك لترك المجال للفكر الإنساني للتأمل بما جرى، ولتصور ما يمكن أن يكون قد حدث من معاناة. والإيجاز يشكل عنصرا آخر من عناصر الإعجاز القرآني. ومهما يكن من أمر، فبعد طمأنة يوسف بالنجاة، واللقاء بأخوته في يوم ما، ومحاسبتهم على ما اقترفوه بحقه، دون حسبان منهم لذلك اليوم، انتقل السياق لبيت النبي يعقوب ليكشف عمّا جرى بعد عودة الاخوة إلى البيت:

«وجاؤوا أباهم عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» (١٦، ١٧، ١٨، سورة «يوسف»)

وهكذا اكتملت التمثيلية.. لقد أعاد اخوة يوسف الأقنعة إلى وجوههم لدى وصولهم إلى البيت، فدخلوا وهم في حالة من البكاء الجماعي.. منظر غريب حقا ومنفر في الوقت نفسه، ويلقي أضواء على نفسية وحركات عصبة الكيد. فهؤلاء لا

يكتفون بالحديث بصوت واحد، بل يبكون ايضاً بنغمة واحدة بهدف إخفاء معالم مكيدتهم، ونفض أيديهم منها. ومع حركات البكاء المصطنع هذا، تقدم الاخوة نحو يعقوب لتبرير مسألة عدم وجود يوسف معهم. فقالوا له إنه عند ذهابهم للاستباق، وتركهم يوسف عند ملابسهم للحفاظ عليها، أكله الذئب. ولكن بما أن هذا الإدعاء يتناقض تماما مع وعودهم للحفاظ على حياة يوسف من الذئب انطلقوا للقول «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» أي وما أنت بمطمئن لقولنا الموجه لك، حتى ولو كان صدقا، لأنك لا تثق بنا ولا تطمئن لكلامنا.. عبارة مقدمة في إطار سلبي بهدف الحصول على نتائج ايجابية. وعند هذه النقطة، تقدم الاخوة لإعطاء الأب قميص يوسف الذي لطخوه بالدم الكذب كدليل لإثبات صحة روايتهم له. وهنا توقف الأخوة عن الكلام منتظرين تعليقا من والدهم على روايتهم. فبماذا تفوّه «قال بل سوّلت لكم انفسكم أمراً فصبر جميل» عبارة بالغة في الحكمة، تظهر حسا من جانبه لما حصل، ومن ثم عدم اقتناعه بالأكذوبة التي اتوا بها، أي أكذوبة الذئب التي غالباً ما تذرعوا بها نتيجة عبارة سابقة صدرت عن يعقوب «واخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون».

إن كلمة «سوّلت» تشير إلى حديث النفس، الأمارة التي تصغي إلى وساوس الشيطان. وعليه، فهي ترتبط بعبارة سابقة ليعقوب «إن الشيطان للانسان عدوّ مبين». وبذكر يعقوب لهذه الكلمة «سوّلت» فقد وضع التبعة على أبنائه مخليا بذلك المسؤولية عن نفسه كأب للأسرة، وإلا لما لجأ للقول «فصبر جميل». لقد وقع ما وقع على الرغم من محاولاته لمنع ذلك، وحسب قدراته كإنسان، فما عليه بعد ذلك إلا التذرع بالصبر، فالصبر مفتاح الفرج. وبذلك فهو يحمل أملا في طياته، مع أن عدم اليأس والتمسك حتى بشعرة أمل، يضيف جمالا للروح، وانشراحا للقلب، وهذا ما يفسر استخدام يعقوب لكلمة «جميل». ولكن بما أن التحلي بالصبر حتى قدوم ساعة النصر يتطلب دعماً من السماء، فقد التمس يعقوب العون والمدد من الله سبحانه وتعالى، فالسماء هي أفضل ملجأ للانسان حين تحيط به الخطوب التي يحس بفاعلها، ولكن يقف وحيدا عاجزا عن فعل أي شيء تجاهها.

إن هذ الموقف، يثير تعاطف القارئ أو السامع مع يعقوب، فهو يتابع انفعالاته وأحاسيسه بانفعالات وأحاسيس مماثلة. وفي موازاة ذلك، فالقارئ، يشعر بالنفور والغضب من الدور الذي قام به الاخوة كعصبة ضد اخ بريء، لا ذنب له سوى تميّزه بالتفوق والحكمة التي رأوا فيها خطرا على مآربهم. على أن هذه المشاركة بين القارئ وشخصيات القصة، سلبا أم إيجابا، هي مظهر آخر من مظاهر الإعجاز القرآني من حيث الاسلوب القصصي. ومن خلال المشاركة تلك، يلتقي الحاضر بالماضي، وتنشأ وحدة عضوية بين ماض بعيد، وحاضر قريب لتشكل دليلاً على أزلية القرآن، وصلاحيته لكل زمان ومكان بالعبر والدروس المستقاة من قصصه وغيرها.

الدروس والعبر

هذا وبالنسبة للعبر والدروس المستقاة من القصة، حتى هذه النقطة، فهي تتبلور كالآتي: أولاً، ضرورة الحرص في التعامل مع الآخرين وعدم الغفلة من أجل عدم الإنزلاق بمتاهات المكائد، وإن حصل التخفيف من وطأتها. ثانيا، الأخذ بالكيد المبني على الحسد كحقيقة يمكن حدوثها في أي زمان ومكان، واكتساب المعرفة بصدد التخطيط والتنفيذ لهما للوقاية. ثالثا، الحرص من وجود عصبة كيد، والأخذ بوجود العصبة كواقع في أزمنة وأمكنة شتى، علما بأن عصبة اخوة يوسف تشكل «نموذجا» حيا في هذا المضمار.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، ضرورة الحرص في التعامل الفردي من خلال الاحتكاك بالجماعة، فالقصة تضع يعقوب كمثل أعلى في هذا المضمار، على الرغم من استسلامه الاخير لأبنائه عندما سمح ليوسف بالذهاب معهم. وقد فهم يعقوب أولاده إلى حد بعيد، وعرف شعورهم نحو يوسف بالذات. وبذلك، فقد أمر ابنه هذا بكتمان الرؤيا عن اخوته، ولو لم يفعل ذلك، لربما اخذت الأحداث منحى آخر. وبما أن تغلغل الحسد في أعماق النفوس قد يدفع بالإنسان إلى قتل المحسود، فقد ساهم يعقوب بحماية يوسف من هذا المصير، وخصوصا أن فكرة القتل احتلت الصدارة لدى الأخوة كما ذكر سابقا. والجدير بالذكر هنا، أنه على الرغم من توجيه القصة نحوالحرص من الكائدين، فهي تدعو إلى حسن التعامل والتهذيب معهم، وبهذا

تضع المسألتين في اطار تكميلي واحد. لذلك نجد يعقوب الذي كان يعلم بنوايا أولاده على يوسف، كيف كان يتحاور معهم برقة وتهذيب بالغ، لكن دون أن يترك مناسبة لإعلامهم بودّ أبوي وأنه يفهمهم جيدا، حتى يضبطوا أو يكبحوا جماحهم نحو إيذاء يوسف قدر المستطاع. واتباعا لهذا المفهوم، فالقصة تبرز يعقوب وهو يشكك بنواياهم إلى نقطة معينة رغم لطفه معهم، وكبت مشاعره حين حصل ما حصل ليوسف.

على أنه فيما يتعلق بالنقطة الثانية، نقطة الكيد من حيث التدبير والتنفيذ، فقد عرضت القصة مخطط الأخوة الرهيب من خلال ربط ذلك بنفوسهم واطماعهم. اما فيما يتعلق بخطوات التنفيذ لهذا الكيد قبل اخذ يوسف وبعده، فقد تمثلت باستخدام العاطفة كأداة للوصول إلى هدفهم الرامي إلى اخذ يوسف، وتبرير اختفائه بعد رميه في البئر. ففي المرحلة الأولى من المخطط، عمد الأخوة إلى التكلّف بشعور وإحساس جميل نحوه في ظل تعابير رقيقة، وضع أولها في إطار استفهامي لإبعاد الشبهة عنهم، والتقريب بينهم وبين يعقوب لكسب ثقته. ولتدعيم موقفهم تذرعوا بصفات ايجابية نحو يوسف، فأظهروا استعدادا للتضحية من اجل رعايته في خطوة ثانية. بيد أنهم عندما تلقوا تشكيكا من يعقوب بنواياهم، اتجهوا في خطوة ثالثة ليؤكدوا له أن عدم التزامهم العهد القاضي برعاية يوسف ينعكس سلباً عليهم وعلى سمعتهم كجماعة قوية. وهنا تظاهروا بالتمسك بمبدأ «الصراحة» كوسيلة اخرى لإخفاء ما يجول في خواطرهم من شرّ، لأن ذلك يبيّن أن للصراحة وجهين: ايجابي في حال الصدق، وسلبي في حال التظاهر بما هو ليس بالباطن.

ولكن عندما دخل مخطط العصبة حيّز التنفيذ النهائي، المتمثل في العزم على إلقاء يوسف في غيابة الجب، واجه الأخوة الآن مسألة كيفية عودتهم دون يوسف بعد إعطاء الوعود بالتكفل برعايته. وإزاء ذلك، كان لا بد لهم من تكثيف التمثيل. وهذا ما يفسر دخولهم المنزل في مرحلة اخيرة، وهم في حالة من البكاء المصطنع بعد تنفيذ المخطط. ومن الطبيعي في مواقف الحزن الحقيقية ان يبكي البعض في حين يكتم البعض الآخر حزنه في قلبه بموجب الطبائع البشرية. اما بكاء الكل مرة

واحدة، فهو مجرّد تمثيل دون أدنى شك. وقد بلغت حركاتهم التمثيلية تلك الذروة حين قدّموا لوالدهم قميص يوسف الملطخ بدم كذب كدليل مادي على صدقهم. إذن، فالتخطيط والتنفيذ للمكائد لا يمكن أن يتم دون اللجوء إلى أساليب عديدة من الاحتمالات، بعضها معنوي والآخر مادي، وذلك حتى تكتمل التمثيلية من كل وجه، ويتم الضمان لنجاحها حسب مفهوم عصبة الكيد.

وبالانتقال أخيرا إلى النقطة الثالثة، العصبة من حيث التركيب والخطورة، نرى أن خطورة العصبة تبلغ أقصى حد ممكن، لأنها تدور حول جماعة هدامة ذات تفكير مشترك، ونفسية وتطلعات واهداف ومطامع وحيل واحدة ناتجة عن الحسد وحب الإستئثار بالأشياء (الإستئثار باهتمام يعقوب هنا). إن سيطرة العواطف على تفكير أفراد العصبة بدافع الحسد يفقدهم وازع الضمير، فيستمعون إلى الوساوس الشيطانية وينزلون الضرر بالغير.. ولكن لفترة مؤقتة، تزول بعون السماء للمظلوم، فيبقى عندئذ الباب مفتوحا للعِبر.

ومع وصولنا إلى هذا المنعطف، نرى وجوب العودة ثانية إلى أحداث القصة لاستقاء مزيد من الدروس في مشاهد مقبلة.. وبالعودة قليلاً إلى الوراء، نرى أن المشهد الثالث - في احدى زواياه - ركز على تصوير يوسف وهو يقف على صخرة في قاع البئر، يتلقى وحيا من السماء يحمل بشرى النجاة بين طياته.. فماذا حصل بعد ذلك؟ هذا ما سيشكل موضوعا للبحث في «الفصل الثاني» من هذه الدراسة عن قصة يوسف.

الهوامش

١ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٧٣.

٢ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٧٤.

٣ ـ أبو الفداء اسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، جزء ٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠)، ص. ٤٧١.

الفصل الثاني

يوسف في بيت العزيز: المراودة

كانت البئر التي ألقي فيها يوسف تقع على طريق للقوافل، فلما تلقى وحي البشرى بالنجاة، مرّت قافلة من هناك، فأرسل أفرادها واردهم للتزود بالماء من تلك البئر. وعند إلقاء الوارد للدلو، إذا بيوسف يتشبّث به للخروج. ومع أن السياق للأحداث لا يتحدث عن شعور يوسف وقتئذ تبعا للأسلوب القرآني باستخدام «الإيجاز» في مواطنه، إلا أنه يمكننا القول: إن دفاعه عن نفسه كما ذكر سابقا، يبين أنه كان يتوق للخروج إلى عالم النور، عالم الحياة، بدل البقاء في قاع البئر، قاع الحياة، الذي يصارعه الموت فيه. وبذلك، فلا بد وأن خروجه من البئر كان بمثابة بشرى عملية تبعت بشرى الوحي. لكن مقابل ذلك، فالسياق يتحدث عن بشرى للوارد وأصحاب القافلة.. بشرى الحظي بغلام، لكن البشرى هنا، لم تقع لديهم موقعا وجدانيا معنويا، بل وقعت موقعا ماديا بدليل أنهم أسرّوا يوسف كبضاعة لإخفائه عن الأنظار، دون علم من جانبهم بأن الله تعالى على علم بما يفعلون. ثم باعوه بثمن زهيد، دراهم معدودة كما جاء في قوله الكريم:

> «وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» (١٩، ٢٠، سورة «يوسف»)

وبهذا بِيع يوسف كالرقيق من قبل من لا يعرفون للإنسانية معنى ولا قيمة، حيث أن معنى الحياة لديهم يكمن في عد الدراهم. ولكن كيف كان شعور يوسف وهو يفاجأ بهذه الحقيقة المؤلمة بعد مفاجأته الأولى بمكيدة قذفه بالبئر؟ فالسياق هنا، حسب الأسلوب القرآني المتصف بالإيجاز، لا يتحدث عن شعور يوسف وأحاسيسه في هذا الموقف، بل يترك للذهن البشري حبل التأمل والتفكير بما يمكن أن يكون قد جرى، حتى لا يكون التأثير قويا عليه. على أنه بهذا الجو من الغموض

والتأثير الوجداني، انتقل السياق الآن للتحدث عمن اشترى يوسف، وعن أحواله في بيته.

المشهد الأول

يظهر المشهد يوسف وهو يحظى بالعيش في بيت آمن من بيوت مصر، بيت رئيس الشرطة، كما ورد في بعض الأعمال المختصة بالقصص. وبالطبع، وتبعا للاهتمام القرآني الجوهري بالأحداث، على أساس أنها تمثل مادة للاتعاظ من وقوع أشياء تتكرر بطريقة أو بأخرى عبر الأزمنة والأمكنة؛ فلم يحدد المدينة التي نزل فيها يوسف بالضبط، ولم يعطِ معلومات عن الحكم السياسي السائد وقتئذ، تاركا الأمر للاستقرار. وبهذا الصدد، ورد ما يلي:

> بِيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر ولم يعيِّن البلد، الذي كان عاصمة الملك، من البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنه مدينة صان ببلاد الشرقية قرّب بحيرة المنزلة. وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد، كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول ابراهيم وكان منهم الملك الذي أكرم مثوى ابراهيم، واعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة التي منها احمس الذي طرد العمالقة من مصر(١).

من الواضح أن صاحب البيت، رئيس الشرطة، قد حمل تقديرا ليوسف من منطلق إدراكه لنبوغه وسموّ أخلاقه. وبذلك امر زوجته بإكرام مثواه، والتوسم به خيراً. ولشدة لهفته على يوسف، وأمله وثقته به، فقد راودته فكرة اتخاذه ولداً لهما، كما عبّر عن ذلك لزوجته. وبهذا حظي يوسف بمن يفهم النواحي الإنسانية المتميِّزة لديه بعد بيعه من قِبل من لا يرون الحياة، إلا من منظار عد الدراهم: إذن، بعد فترة عناء وتعاسة، كما هو حال الدنيا بالتقلب، فقد نعم يوسف بالاستقرار لفترة ما،

وتثبت في المجال العائلي حين خوّله صاحب البيت حق التصرف بشؤون المنزل، رأسا بعده وبعد زوجته. وبالوصول إلى هذا الحد، يقف السياق لُيذكّر الإنسان بأن هذا التمكّن ليوسف قد حصل بالمشيئة الإلهية، وليشير في الوقت نفسه، إلى أن يوسف قد مضى في الطريق لتلقي العلم المختص بتأويل الأحاديث من قِبل الله سبحانه وتعالى، كما ورد في كتابه العزيز:

> «وقال الذي اشتراه من مصر لإمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكّنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢١، سورة «يوسف»)

وهكذا، فإن تدابير اخوة يوسف، التي ترمي إلى وضعه في قاع الحياة، قد باءت بالفشل، وانقلب الأمر إلى تمكينه فيها، وذلك ليدرك الإنسان أن القوة كلها بيد الله جلّ وعلا. ومهما استنفد أصحاب المكائد من وقت للتخلص من شخص أراد الله له الرفعة والمنزلة العظيمة، لن ينالوا إلا الخسران، فالغلبة لله وحده في كل امر. وهنا تقف الآية « ٢١» لتكشف عن جهل الأكثرية من أبناء البشرية لهذه الحقيقة، لأنه لولا هذا الجهل، لما توجّه الكثيرون لتدبير المكائد للغير بدافع الحسد، وحب الاستئثار بالدنيا، والتنعم ببريقها الزائف دون حسبان للسماء. وبهذا الإطار، فالآية تلك، تحمل معها دروساً للبشرية تتجلى في الآية التالية:

> «ولما بلغ أشدَّه آتيناه حِكَماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين» (٢٢، سورة «يوسف»)

وفي تفسيره لهذه الآية الكريمة، يقول سيد قطب:

> فقد أوتي صحة الحكم على الأمور، وأوتي علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أعم، من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير، وكان ذلك

جزاء إحسانه. إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك(٢).

وبإظهار هذه العلاقات السماوية الدنيوية المختصة بيوسف من حيث تزويده بالمعرفة، ينتهي المشهد الأول من هذا الفصل ليركز السياق الآن على أحداث وقعت له «كإنسان» في بيت رئيس الشرطة الذي تولى رعايته كما ذكر أعلاه.

المشهد الثاني

تبتدئ أحداث هذا المشهد بالآية الكريمة التالية:

«وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون». (٢٣، سورة «يوسف»)

لقد اهتمت كتب التفاسير القرآنية بتلك الآية - وما بعدها - اهتماما كبيرا، لأنها تدور في محورها حول عشقٍ موجهٍ ليوسف من قبل التي كان هو في بيتها، وهي امرأة العزيز، كما كشف السياق عن ذلك فيما يلي من مشاهد. لقد احبت تلك المرأة يوسف، الذي اتصف بجمال خَلْقي إضافة إلى جماله الخُلُقي، حبا تخطى الإطار النفسي ليخرج إلى الإطار الواقعي بدليل استخدام كلمة «راودته» التي ورد شرحها كالآتي من قبل محمد علي الصابوني:

طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها، منه أن يضاجعها، ودعته... أن يواقعها....»(٣).

وفي المنهج نفسه، ورد تفسير الكلمة في كتاب «التفسير الحديث» لمحمد عزة دروزة، حيث ذكر بأنها تعني طلب امرأة العزيز من يوسف «إتيان الفاحشة معها»(٤).

إن ابتداء المشهد هذا، بمراودة امرأة العزيز تلك، يحمل في طياته مفاجأة للقارئ. فاستنادا إلى الآية الكريمة، التي أبرزت صاحب البيت وهو يدعو زوجته

لإكرام مثوى يوسف على أساس امكانية اتخاذه ولدا لهما: كان القارئ يتوقع أن تكون تلك المرأة في سن تكبر فيها يوسف بمراحل، ومن ثم تنظر إليه بعين الأمومة. ولكن كم كان عمرها وعمره في وقت عشقها له؟ فالسياق لأحداث القصة لم يكشف عن هذه النقطة، تاركاً للذهن البشري تقدير ذلك من خلال التفكير والتأمل بالأحداث منذ البداية حتى هذه النقطة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن سيد قطب قام بمحاولة قيّمة للتوصل إلى التقدير المطلوب عن طريق التحليل الآتي:

> لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي أنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد.. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة... (على أن) خاطر التبني.. لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد، فلا بد أن تكون قد مضت على زواجها فترة؛ يعلمان فيها أن لا ولد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع.. أن تكون (سنها) حينئذ حوالي الثلاثين. ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها.. نرجحها لأن تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة، مالكة لكيدها، متهالكة على فتاها(٥).

وإلى جانب ذلك، يرى سيد قطب أن محنة المراودة، المذكورة اعلاه من جانب امرأة العزيز، لم تكن وليدة ساعتها حيث يقول:

> هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة. إنما تكون هي الدعوة الأخيرة(٦).

ويضيف سيد قطب قائلا: إن تلك الدعوة الأخيرة كانت «سافرة الى الفعل

الأخير». ومن هنا، يلاحظ أن حركة إغلاق الأبواب لا تأتي إلا في آخر لحظة.. لحظة تهالك تلك المرأة على يوسف(٧). ولكن كيف كان رد فعل يوسف في هذا الموقف (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون). لقد استعاذ يوسف بالله تعالى من فعل السوء، وعلى حسب ما اورد أبو السعود فهذه «اشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله للخلاص منه»(٨). هذا، وبحكم إيمانه العظيم وإخلاصه في الطاعة لله تعالى والاعتراف له وحده بالفيض عليه بالرحمة في حياته، حيث نجاه من ظلام الجب، ووضعه في بيت حظي فيه بمعاملة طيبة، وبإكرام من سيده، قال: (إنه ربي أحسن مثواي)، فهنا أخبر تلك المرأة بأنه لن يفلح الذين يتجاوزون الحدود التي وضعها الله تعالى للإنسان، فيعملون مثل ما كانت تدعوه إليه. وتعليقا على النص المختص بموقف يوسف هذا، يقول سيد قطب:

> والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي... فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته: «وقالت هيت لك»(٩).

ولكن ومع موقف يوسف في «التأبي»، فسياق الأحداث يظهر في الآية الكريمة التالية ما يلي:

> «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» ٢٤، سورة «يوسف»)

وفي شرحه لإحدى نواحي تعبير «الهم بالشيء» يقول ابن جرير الطباري في «جامع البيان في تأويل آي القرآن» ومعنى الهم بالشيء في كلام العرب: «حديث المرء نفسه بمواقعة، ما لم يواقع»(١٠). أما بالنسبة لشرح التعبير كما ينسب لامرأة

العزيز «بالتخصيص» فقد ذكر دروزة أنه يعني استعداد «عزمها وإلحاحها عليه»(١١). وفي الإطار نفسه، يقول الصابوني عن معنى التعبير المعني بالأمر هنا «ولقد همّت به»:

> أي همّت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، عزما جارفا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف(١٢).

ولكن عندما يأتي تعبير «وهمّ بها» يفسره الصابوني من منظار «نفسي» فيقول: إن التعبير هذا يحمل معه ميلا من يوسف «بالنزول عند رغبتها كحديث نفس دون عزم وقصد مبين» معتمدا بذلك على تفسير الإمام الفخر الرازي حين قال «الهمّ خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، لكن دينه يمنعه عنه»(١٣). إن معظم المفسرين يتبنون هذا الموقف في شرح آية «٢٤» فيقولون إنه في الوقت الذي همّت امرأة العزيز بيوسف همّ الفعل، همّ هو بها همّا نفسيا إلى أن رأى برهان ربه فترك الأمر(١٤). ولسيد قطب أيضاً، نظرة تحليلية عن الموقف المتمثل في الآية الكريمة «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه» حيث يقول:

> هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف

> بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا... (وهذا التفسير) اقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر... مختار. ومن ثم لم يتجاوز همّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبي»(١٥).

وبذلك ثبّت الله تعالى يوسف على العفة لصرف المنكر والفجور عنه «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء». وهذه الآية تشكل دليلا قاطعا على أن يوسفَ لم يقع منه همٌ فعلي تجاه الإغراء بالرغم من لحظة ضعف نفسي طارئ. ولكن بما أن هذا الإغراء كان فوق طاقته، «فصرفه الله عنه بما منحه من موجبات العفة....»(١٦). فيوسف من عباد الله المخلصين المصطفين للوحي والرسالة، والذين لا يتمكن الشيطان الرجيم من غوايتهم «إنه من عبادنا المخلصين».

وبعد تقرير هذه الحقائق الروحية المختصة بحفظ الله ورعايته ليوسف، يمضي سياق الأحداث لتصوير ما جرى بعد أن رأى يوسف برهان ربه. هنا، ولّى وجهه نحو الباب للإفلات، في الوقت الذي جرت فيه امرأة العزيز خلفه، تجاذبه قميصه وتحدث تمزقا فيه، ولكنه مع ذلك، تمكن من التغلب عليها، فاستبقا الباب، هو يسعى لفتح مغلقه، وهي تعمل على منعه من الإفلات قبل تلبية رغباتها. في هذه اللحظة، وقعت المفاجأة حين الفيا بعلها لدى الباب كما ورد في قوله الكريم:

> «واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم» (٢٥، سورة «يوسف»)

إن هذا المشهد بكل مفاجآته مثير للتأمل والتفكير. وإن كلمة «الاستباق» تحمل في طياتها صراعا بين الحق المتمثل بيوسف، والباطل المتمثل بامرأة العزيز، مع

محاولات من تلك المرأة لمحق الحق، واستبداله بالباطل. ولا شك أنها كانت تشعر بخيبة أمل من يوسف لعدم تلبيته رغباتها الجنسية. وبسيطرة مثل هذا الإحساس عليها، بما عُرف عنها من قلة حياء أو خجل، فكان من المتوقع، وهي ترى سيدها لدى الباب، أن تسقط اللوم عن نفسها وتلقيه على يوسف. ولكن، لم يكن متوقعا تأجج نار الحقد في قلبها لدرجة إثارة زوجها لوضع يوسف بالسجن أو تعذيبه بشدة. فكيف كان موقف يوسف تجاه قلب الحقائق من جانب امرأة العزيز رأسا على عقب؟ هذا ما تحمله الآية التالية:

> «قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين» (٢٦، ٢٧، سورة «يوسف»)

لقد خرجت كلمة الصدق والأمانة من فم يوسف حين قال للعزيز: إن امرأته هي التي راودته عن نفسه. وعند هذه النقطة، يتحدث السياق عن شهادة شاهد في هذا النزاع، دون إعطاء تفصيلات عنه، تاركا بعض الأسئلة في ذهن القارئ، كما يظهر من الفقرة التالية لسيد قطب:

> فأين ومتى ادلى هذا الشاهد بشهادته هذه؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير اهل مصر) وشهد الواقعة؟ ام أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيرا من اسرة المرأة ويطلعه على ما رأى... هذا وذاك جائز. وهو لا يغير من الأمر شيئا. وقد سمي قوله هذا شهادة... لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه(١٧).

في تقصية للأمر، فقد اتبع الشاهد منهجا بالغا في الدقة والتمحيص. فقال إن كان التمزق في قميص يوسف من الأمام فهي صادقة. وذلك لأن اثر دفاع المرأة عن

نفسها في حال الهجوم عليها يظهر من الأمام، مكان المدافعة. اما في حال حدوث التمزق في قميصه من الخلف، فهذا يعني ان امرأة العزيز كاذبة، لأنه عندما يهرب الرجل من المرأة الراغبة فيه، فمن المتوقع أن تشده من الخلف لإقصائه عن الهروب. وبما أن هذا هو ما حصل ليوسف، فقد ثبت الحق له، والكذب عليها:

«فلما رأى قميصه قدَّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنكِ كنتِ من الخاطئين» (٢٨، ٢٩، سورة «يوسف»)

وبهذا الموقف الذي وصل إلى الحد الأقصى من الحساسية، وضع العزيز اللوم على زوجته كإمرأة تسعى نحو المكائد، ثم طلب من يوسف إهمال الأمر وكتمانه، ومن زوجته الاستغفار لذنبها بسبب الخطأ الذي ارتكبته. وبهذا انتهى المشهد الثاني من هذا الفصل.

الدروس والعبر والاعجاز في المعنى

إن هذا الفصل من القصة، بمشهديه، فريد من حيث معانيه بين القصص القرآنية، لأنه يتناول زاوية العلاقة بين يوسف «كإنسان» وبين المرأة، زوجة العزيز، من حيث المشاعر، ومدى القدرة على ضبطها. أما بالنسبة ليوسف، وبحكم انتمائه إلى بيت نبي، وتأهيله للنبوة وقتئذ، إضافة إلى امتيازه بالتفكير العظيم، فقد كان من الطبيعي أن يمتلك القدرة على مقاومة الإغراء إلى اقصى حد ممكن. ولكن يوسف كان «إنسانا» في الوقت نفسه، يمتلك مشاعر إنسانية بحكم الطبيعة البشرية، وبذلك لم يكن من السهل عليه أن لا يشعر بإغراء امرأة العزيز الذي بلغ أوجه حين غلّقت الأبواب وقالت له «هيت لك» او هلم فأقبل، فلو لم يشعر بذلك لما كان إنسانا. إن مسألة الجانب الإنساني في يوسف تشكل أحد المحاور الرئيسية في القصة، وذلك لوضع حد فاصل بين الألوهية والإنسانية، في حين أن كل أبناء البشر يتعرضون للحظات ضعف في اي مجال، مهما علت مرتبتهم الروحية، فالكمال لله تعالى وحده. وإن يوسف الذي امتلك قدرة عظيمة بالتغلب على إغراء المرأة، فقد مرّ بلحظة

ضعف، عندما حدثته نفسه بالنزول عند رغبتها، ولكن دون الإقدام على فعل ذلك قطعيا، انطلاقا من الحفظ والرعاية الإلهية له، وتثبيته على العفة. اذن، فالضعف هنا تجسد في حديث النفس، ولكن مقابل ذلك، تجسدت القوة لديه في عدم الإصغاء لحديث نفسه في تلبية رغبات امرأة العزيز الجنسية، والأجواء كلها مهيأة له، إتقاء لغضب الله عزّ وجل والتزاما بحدود الدين. وفي هذا التأرجح بين الضعف النفسي الطارئ، والقوة الروحية، يجد القارئ عِبَرا متطلبة. فإذا مرّ أي انسان بتجربة مشابهة لمحنة يوسف مع امرأة العزيز من حيث الموضوع، فعليه ان يثبت ولا ينزل عند رغبات الإغراء بحجة عدم قدرته على تحمل ذلك. صحيح أن يوسف كان ابن نبي مؤهلاً للنبوة فاستطاع مقاومة الإغراء.. إلا أن الله تعالى لن يترك برحمته وعلمه أيّ انسان مؤمن يتعرض لموقف إغراء فوق ارادته. فسرّ القوة في مجابهة الإغراء، تكمن في الإيمان الذي اذا وصل إلى درجة عظيمة، تتلاشى بالإنسان الشهوات الباطلة، فيرتقي بروحه بدلا من الاستسلام والهبوط بها إلى الذل والمهانة. فموقف يوسف إذن، موقف تسامٍ وتعالٍ، عظيم عن الشهوة.

هذا بالنسبة للعِبَر المستقاة من تصرف يوسف وقت محنته مع امرأة العزيز. ولكن فيما يتعلق بما يمكن ان يستفاد من قصة عشق تلك المرأة ليوسف، فالأمور تتجلى كالآتي: إن هذه السيدة كانت متزوجة من شخص كريم، ذي مركز مرموق، ومعاملته الكريمة ليوسف - الذي حفظ له بدوره الجميل - تشير، في البداية إلى تسامح في طبعه، ولو أن تغييرا في مسلكه اخذ مكانا فيما بعد، كما تظهر الأحداث. المهم هنا، أن تلك المرأة قد تزوجت رجلاً قادراً على ان يوفر لها اسباب الراحة. وبناء على ذلك، يتعجب المرء من وقوع تلك الزوجة بحب شاب قد يصلح إبناً لها، اذا كان تقدير سيد قطب لعمريهما اقرب إلى الحقيقة. بل ويزداد عجبه حين يسمع بشدة إلحاحها عليه لمضاجعتها حين غلّقت الأبواب. إن هذه الخطوة من جانبها تبين أنها فقدت السيطرة على عواطفها لعدم إيمانها، وأنها سقطت بذلك إلى الدرك الأسفل الذي لا صعود منه، فقد أفلت يوسف منها، وكشف أمرها أمام زوجها وغيره، واصبحت مدار الحديث في المجتمع السائد وقتئذ، بالرغم من حيلها الهدامة النابعة

عن حقد في نفسها على يوسف بعد فشلها. ولكن هذا الفشل هو الذي يقف كعبرة للاتعاظ من قبل مثيلاتها خلال التاريخ. فامرأة العزيز تقف كنموذج لصنف من النساء، وجد ويوجد دائما على الساحة الأرضية. والعِبرة هنا، هو أن على المرأة المتزوجة ان تتحلى بالقناعة، وتلتزم بالوفاء لزوجها، وتتحمل أعباء الزوجية بإخلاص، دون التطلّع لهذا او ذاك، مع ظنٍ منها بالقدرة على إبقاء الأمر في حيز «الكتمان». إن قصة امرأة العزيز حين دعت يوسف لنفسها تدحض هذا الظن، وتؤكد بأن الله تعالى الذي ينهي عن السوء والفحشاء، قادر على كشف محاولات المرأة في الغواية، حتى ولو غلّقت الأبواب في قصر منيع كقصر صاحب الشرطة في مصر. على أن كل هذه المعاني تشكل دليلا على إعجاز القرآن، وصلاحيته بعِبَرِه للحياة العائلية في كل زمان ومكان. فالقرآن هنا يحث على ضرورة إرساء قواعد الفضيلة في المجال العائلي على أساس أن العائلة تشكل نواة المجتمع.

الاعجاز في الاسلوب

فيما يتعلق بالإعجاز من حيث الاسلوب، فالمشهد يحتوي على عناصر قصصية كثيرة مصدرة بمفاجآت ثلاث: أولها، وصول يوسف إلى بيت العزيز وإكرامه، ثانيها، مراودة امرأة العزيز له وما احاط بذلك من احداث، ثالثها، قدوم بعلها غير المتوقع ووقوفه لدى الباب.. مفاجآت ثلاث مليئة بالحركة: إغلاق الأبواب.. رفض يوسف لتلبية رغبات امرأة العزيز الجنسية.. نزاع.. ثم استباق.. شدّ ثوب يوسف من الخلف.. فشل في جذبه.. فتحه للباب.. ثم رؤيته لصاحب البيت هناك. إن كل هذه الحركات تعمل على خلق أجواء من الدهشة في نفس القارئ، الذي يشعر وكأن المشهد أمام عينيه. وعدا عن ذلك، فبعض تلك المفاجآت يبعث الحركة داخل النفس البشرية. وكما ذكرنا سابقا، فقد واجه يوسف لحظات تأرجح بين الضعف والقوة كإنسان، انتهت بحسم الموقف بقوة الإيمان المستمدة من السماء. تلك القوة التي قهرت النزعات الشيطانية الكامنة في نفس امرأة العزيز وثبت الحق، وذلك ليتذكر الإنسان أن الشيطان عدوّ له، لا يجلب إلا الخزي في الدنيا والآخرة. إذن، مقابل الصراع «الواقعي» بين يوسف وزوجة العزيز عند رفضه لها، برز في المشهد صراع

«معنوي» انتهى بقهر السماء لتلك المرأة والنزعة الشيطانية فيها. ومع أن الإيحاءات الشيطانية تكاثرت في نفسها بعد فشلها، لإيهامها بتحقيق نجاح بمواصلة كيدها ضد يوسف، إلا أنها قادت، في الواقع، إلى المزيد من تعقيد الأمور ضدها، حتى اتى وقت وجدت فيه نفسها مجبرة على الإدلاء بكلمة الحق، بصدد ما فعلته نحوه.

الهوامش

١ ـ عبد الوهاب النجار، **قصص الانبياء** (بيروت: دار الجيل، لا. ت)، ص. ١٥٧.

٢ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٧٩.

٣ ـ محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، جزء ٢ (الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨١)، ص. ٤٦.

٤ ـ محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، جزء ٢ (القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، لا. ت.)، ص. ١٠٧.

٥ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص ص. ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

٦ ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٨٠.

٧ ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٨٠.

٨ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٦.

٩ ـ قطب، **المصدر السابق**، ١٩٨١.

١٠ ـ أبو جعفر بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، جزء ١٢ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٤)، ص. ١٨٣.

١١ ـ دروزة، **المصدر السابق**، ص. ١٠٧.

١٢ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٧.

١٣ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٧.

١٤ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٨١.

١٥ ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

١٦ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٨.

١٧ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٨٢.

الفصل الثالث

نساء المدينة: المكيدة

إن تعقيد الأمور في حياة امرأة العزيز، ازداد بعد علم زوجها بالحقيقة المستندة إلى الشهادة المذكورة سابقا.. حقيقة مروعة لمن سمع بها من سكان قصر العزيز بكل مركزه القيادي. وكقاعدة روحية، فمن الواجب على كل امرأة ان تلتزم بالعفة، وتحافظ على احترامها لنفسها، وأن لا تفعل ما يعرضها للعقاب السماوي ويفقدها مكانتها. واذا كانت تلك القاعدة ملزمة لكل النساء، فكيف يكون وقع الجنوح نحو الضلال من السيدة الثانية او الثالثة في البلاد؟ مثلما كان الحال مع امرأة العزيز؟ ألا ينظر إليها عادة كقدوة بحكم منصب زوجها؟ هل تحطم جدار الهيبة من حولها، وبدا أنه كان وهما؟ هذا ما حصل،فعلاً، لامرأة العزيز.. لقد تحطم جدار هيبتها، عندما تسرب خبرها من القصر إلى خارجه، بواسطة بعض الخدم لديها، وبهذا التسرب، أصبح خبرها هذا حديث الساعة في مصر بين مجموعة من النساء من قومها.

المشهد الاول

يصور هذا المشهد تلك المجموعة من النسوة وهن يتداولن الخبر في وسطهن باستنكار ولوم لامرأة العزيز. وعلى حسب تقدير الإمام ناصر الدين البيضاوي في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» فقد كن «خمسا زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب»(١). وقد انصب اهتمامهن على امور ثلاثة: أولها مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه، وثانيها، سبب تلك المراودة، وثالثها، رأيهن فيها:

> «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنَّا لنراها في ضلال مبين» (٣٠، سورة «يوسف»)

إن أول ما يثير الإنتباه هنا، عدم كف امرأة العزيز عن الطلب لمواقعة غلامها بالرغم مما حصل. فكما يلاحظ وهبة الزحيلي في كتابه «التفسير المنير في العقيدة

والشريعة والمنهج»، أن كلمة «تراود» تفيد «الاستمرار في الطلب في المستقبل» مما يبين أن محاولاتها ما زالت مستمرة(٢). وإن مفهوم الاستمرارية هذا يشكل ظاهرة خاصة بإمرأة العزيز، وربما بصنف من النساء المتشبّهات بها. ومن المتوقع عادة، ان تلتزم كل امرأة بحدودها وتتوجه نحو العفة والفضيلة. ولكن يبدو أن عدم سير امرأة العزيز على هذا النهج، ينبع من عدم قدرتها على ضبط عواطفها نحو يوسف بأي شكل كان، فحبها الشديد له، سيطر كلياً على عقلها ووجدانها، فأعماها عن الصواب، وإن التصرف السليم يجب أن يكون مبنياً على «الإيمان» وعلى توازن بين العقل والوجدان. لكن تصرف امرأة العزيز المتمثل بالطلب من يوسف لمضاجعتها، ثم الكيد له بسبب فشلها.. ثم العودة لمراودته عن نفسه، قد دعا مجموعة النساء المذكورة أعلاه لتوجيه نقد شديد لها حين قلن «إنّا لنراها في ضلال مبين». باختصار، فالنسوة عبّرن عن احتقار وتصغير من جانبهن لامرأة العزيز بسبب عدم احترامها لنفسها، كزوجة لرجل ذي شأن في مصر. وبهذا، فنظرتهن إلى ضلالها تقع في الإطار «العلماني» لا في «الإطار الديني»، لأن الدين يحرّم طلب امرأة العزيز او غيرها كقانون يجب الالتزام به بكل معنى الكلمة.

هذا ما كان يتداول على الألسن في زاوية من المدينة بين خمس من نسوتها. ولكن هل كان بالإمكان إبقاء امر كهذا في حيّز الكتمان ام أنه كان لا بد من انتشاره؟ بالطبع، وبحكم شغف بعض الطبائع البشرية في تناقل الأخبار، إضافة إلى غرابة الخبر المختص بإمرأة العزيز، فقد كان لا مفر من تسربه التدريجي ليشمل المجتمع كله. وبصدد تناقل الخبر، يقول عبد الكريم الخطيب في كتاب «التفسير القرآني للقرآن»:

> إنها الفضيحة قد اخذت تتحرك بسرعة في المجتمع، وانها اليوم حديث نساء الحاشية، وما حولها، وغدا ستكون حديث البلاد كلها.. فلا بد من تدبير يمسك هذه الفضيحة، او يخفف من انطلاقها، وإلا أفلت الزمام وسادت العاقبة!(٣).

إن كلمة «تدبير» تعني وضع خطة طارئة لمواجهة موقف متأزم. ولكن للخطط انواع. فمنها ما يكون مبنيا على قواعد وأسس اخلاقية، لكن مثل تلك الخطط يتطلب اعترافا بالخطأ من جانب من هي معنية بالأمر، ومنها ما يكون منبثقا عن قواعد لا اخلاقية، قواعد المكائد التي من شأنها أن توقع الآخرين في حبائل مصيدة من نوع ما. وهذا ما فعلته امرأة العزيز عندما سمعت بمكرهن، اي كما يقول البيضاوي، عندما سمعت «باغتيابهن» لها(٤)، او «بتشنيعهن عليها والتقليل من قدرها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها» كما ورد في «قصص الأنبياء» للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير(٥).

المشهد الثاني

لما علمت امرأة العزيز باغتياب النسوة لها، أرسلت تدعوهن إلى بيتها، واعدت لكل واحدة منهن متكأ، أي ما يتكئن عليه من الوسائد. كما ورد في الآية الكريمة الآتية:

> «فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن مُتَّكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطَّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم» (٣١، سورة «يوسف»)

حين يجلس الإنسان على كرسي مريح بوسائد، لا بد وأن يسترخي، وفي استرخائه هذا، قد لا تكون يقظته الذهنية بنفس المستوى في حالة عدم الاسترخاء. فلو صدف أنه استرخى وبيده سكينا لقطع الفواكه او غيرها، وحدث امر طارئ أدى إلى انفعال نفسي كبير، لتخبّط، وبحركات لا شعورية غرس السكين بيده بدل غرسها بالفاكهة. وهذا ما حصل للنسوة اللاتي دعين من قِبَل امرأة العزيز. فحين جلسن متكئين، تحمل كل واحدة منهن سكينا لقطع الفواكه او غيرها من الأطعمة، خرج عليهن يوسف بتدبير من امرأة العزيز، فدهشن بجماله الخَلْقي الأخّاذ والمقترن بجمال الخُلُق، وقوة التفكير، اذ أن الجمال الصحيح بالمقاييس البشرية، يحتوي على

سمات مميزة بالخَلق وبالروح، ولجماله المذهل هذا، فقد أعظمنه، وسيطرت عليهن حالة من الذهول. وبالتالي:

> .... لم يعدن يدرين ماذا يمسكن في ايديهن.. وفي حركات لا شعورية اعملن السكاكين في ايديهن، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها. فسالت الجروح، ونزفت الدماء!! وعندئذ تنبهن إلى وجودهن.. وقلن حاش لله.. ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم !!(٦).

بالنسبة لشرح «ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم» فقد ورد ما يلي في كتاب «التفسير المنير....»:

> ما هذا الذي رأيناه من جنس البشر، وما هو إلا مَلَك كريم من الملائكة تمثل في صورة بشر، والمقصود إثبات الحسن العظيم له؛ لأنه استقر في الطباع أن لا حي أحسن من المَلَك، وأن لا حي أقبح من الشيطان. فلما رأت النساء روعة جمال يوسف شبهنه بالمَلَك، ونفين عنه البشرية، لغرابة جماله وروعة حسنه(٧).

المهم هنا، أن امرأة العزيز قد نجحت فعلا في خطتها لدفع غيرها من النساء نحو الانبهار بيوسف، والميل إليه بقلوبهن من أول مرة. على أن خطتها تلك، كانت في غاية الدهاء. فلو ارادت مثلا أي من تلك النسوة مواصلة نقدها لامرأة العزيز، فقد ترى إحراجا الآن في الإقدام على ذلك. فمجرد انفعالها عند رؤيتها ليوسف، وقطعها بالسكين للحم يدها، وسيل الدماء منها، بدل قطعها للفاكهة سوف يمنعها من مواصلة النقد. إذن، فالسكّين الحادة في الإطار العملي، انتقلت بحدتها إلى الإطار المعنوي، والوجداني، وأصبحت تقف كرمز لتغلّب امرأة العزيز على النساء المدعوات، وهذا ما يفسر جرأتها عندما وقفت بينهن لتقول ما يلي:

«قالت فذالكنَّ الذي لمتنَّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوننْ من الصاغرين» (٣٢، سورة «يوسف»)

لقد وقفت امرأة العزيز هنا لتتكلم دون اي معارضة ضدها، عامل ساعدها للتحدث معهن بصراحة ولومهن على استنكارهن لما بدر منها تجاه يوسف. فقالت لهن، هذا هو يوسف الجميل في طلعته وأخلاقه، الذي بدر منكن ما بدر نحوه عند رؤيته. فإذا أخذتم بصفاته تلك من أول نظرة، فكيف يكون حال من تراه باستمرار بحكم سكنه في قصر العزيز؟(٨). وهنا دخلت إلى الزاوية المطلوبة التي تريد الإفصاح عنها بجرأة، وهي اعترافها بمراودتها ليوسف وامتناعه، طلبا للعفة. وعند هذه النقطة، تبيّن أن تفوه امرأة العزيز بالحقيقة تلك، لم يحمل معه نية سليمة كقاعدة، فالاعتراف بالخطيئة قد يقع في إطار التكفير عن الذنب في حال الاستفاقة ويقظة الضمير، او قد يقع في إطار النية بالسير بكيد اكبر، وعندها يكون سلبيا، وهذا هو ما انطبق على امرأة العزيز. فلم يكن تفوهها بالحقيقة إلا وسيلة لاستعراض قوتها في القدرة على الترهيب، فهي الآن وسط جماعة لا تملك إلا مساندتها. وعليه، يمكنها الاستفادة من تلك الجماعة من النسوة بضغطهن على يوسف للنزول عند رغباتها.

وهذا ما يفسر انطلاقها لتهديد يوسف ووضعه أمام خيارين:

اما الاستجابة لمطالبها الجنسية، او وضعه في السجن. بكل ما يلحق ذلك من قهر وإذلال له. ومن الواضح أن تهديدها هذا، جاء من منطلق العشق العلني ليوسف، والممتزج بنار الحقد لعدم استجابته لها، بالرغم من جمالها ومركزها الإجتماعي. ولا شك أن موقفها هذا بعيد كل البعد عن التعقل والحكمة لفقدان التوازن بين العقل والعاطفة، وسيطرة عواطفها الجامحة عليها.. عواطف أفقدتها صفة الحياء بكل ضرورتها للمرأة. وإلى جانب فقدان وازع الضمير لديها، بدت في اقبح صورة ممكنة، فماذا كان موقف يوسف من تهديد تلك المرأة، الذي ما يزال يحمل عنصر الإغراء بين طياته بالرغم من عنفه؟ هذا ما تجيب عليه الآية التالية:

«قال رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين» (٣٣، سورة «يوسف»)

في شرح للجزء الأول من هذه الآية، يقول محمد حجازي في «التفسير الواضح»:

> قال يوسف: يا رب. السجن أحبّ إليّ مما يدعونني جميعا إليه فتلك بيئة ملوّثة لا أحب المكث فيها ابدا، وإن لي في السجن لراحة بال وهدوء نفس. وهكذا لا يستريح الطيب في البيئة الفاسدة، وهذا اشارة إلى اثر البيئة(٩).

وفي لجوء يوسف لله تعالى في محنته تلك، قال «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين»، التي ورد شرحها كالتالي في «التفسير المنير....»:

> وكنى عن امرأة العزيز في قوله (كيدهن) بخطاب الجمع، إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والأولى حمل اللفظ على العموم، اي كيد النساء، وليس كيد امرأة العزيز فقط. وقد اسند الدعوة إلى النساء جميعا: لأنهن زين له مطاوعتها ونصحنه بالاستجابة لرغبتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار. وهو في دعائه هذا آثر المشقة على اللذة؛ لأن العذاب المكروه وهو السجن مع البراءة أهون من الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة....(١٠)

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن اختيار يوسف للسجن أمر يشير إلى غاية الحكمة والتعقل. فالسجن عبارة عن مكان للإقامة الجبرية لإنسان اقترف سوءا، أما

بالنسبة ليوسف، فقد أصبح مكانا لعقوبة كل من امتنع عن فعل شرّ، وأصبح مسرحا للتأنيب على عدم قبول فتى للاستجابة لمراودة زوجة رئيس الشرطة في مصر وقتئذ. وذلك ما يدل على انقلاب في الموازين يحمل في طياته انحلالا خلقيا وانحدارا اجتماعيا رهيبا سببه التحرر من القيود الأخلاقية من جانب بعض النساء في مصر. ويجب أن نذكر هنا، أن تحرر أي امرأة، كزوجة العزيز من القيود الأخلاقية قد يفقدها توازنها، ويثير غرائزها الجنسية، التي تدفعها في حال عدم الإستجابة لِما تصبو إليه، تدفعها للكيد له، والعمل على قهره، حتى ولو كان تهديداً بوضعه في السجن ظنا منها، أن هذا يدعوه إلى الاستسلام لها بذلة ومسكنة. ولكن قصة يوسف تحذر من مغبة مثل هذا التفكير والتدبير، وتؤكد فشله. لقد فضّل يوسف دخول السجن، والمكوث بين جدرانه لسنوات، على الإستجابة لرغبات المرأة، المتجسدة، بالدرجة الأولى، بإمرأة العزيز، وتوسل لله تعالى لإمداده بالقوة اللازمة للتغلب على الإغراء «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن».

ومع أن السجن مكان يحدّ من حرية الإنسان في التحرك أو التنقل من جهة لأخرى، فإنه لا يحدّ من حريته في التفكير، ولا يمنعه من التعبد، والإتصال المستمر بالله تعالى من خلال عباداته. وبهذا الإطار، فالسجن يزوّده بأطول وقت ممكن للتفكير والعبادة لقلة الإحتكاك بالمشاغل الدنيوية التي قد تحول دون ذلك احيانا. وعليه، التجأ يوسف يطلب العون من الله تعالى لصرف كيد المرأة عنه، خوفا من الميل إليها، وقد كان ذلك امرا عظيما، لأن الله تعالى صرف عنه كيدها، المدعم بكيد النساء اللاتي ضغطن على يوسف للاستجابة إلى رغبات امرأة العزيز:

«فاستجاب له ُربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم» (٣٤، سورة «يوسف»)

فالله تعالى «هو السميع لدعاء الملتجئين إليه، العليم بأحوالهم وما يصلحهم»[١١].

ومع صمود يوسف وقوة ارادته، يبدو أن امرأة العزيز فقدت الأمل منه

بالاستسلام والخنوع لها، والإستجابة لرغباتها، فعزمت على تنفيذ كلمتها بالزجّ به في السجن، من خلال الضغط على زوجها، الذي استجاب لها رغبة منه بحصر القصة:

«ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننَّه حتى حين» (٣٥، سورة «يوسف»)

إن هذه الآية تؤكد أن العزيز كان على يقين تام ببراءة يوسف من حلال الشواهد الآتية: مسألة قدّ القميص والشهادة المختصة بها، مسألة تقطيع النساء لأيديهن عندما أخذن بجمال يوسف، ثم اعتراف زوجته الأخير أمام النسوة بمراودتها ليوسف واستعصامه. فإذا كان العزيز اول من يعلم بالحقيقة، فلا مفر إذن من إلمام غيره بها، لأن معرفة الآخرين بالقصة، لا بد وان يشكل عاملا في إحراجه كونه مسؤولاً كبيراً. والسياق بالقصة، يشعر القارئ بأن العزيز كان يجابه نقدا لإفساحه المجال لزوجته للتخريب المنطلق من قلة الحياء، وعدم وجود وازع للضمير. وبذلك رأى أنه بحاجة لوضع حدّ للأمور، ولكن للأسف، لم يكن بمنهج عادل، فالعدل يقتضي إنزال العقاب بزوجته لا بزج إنسان بريء في السجن يصارع على كل مستوى من أجل إرساء دعائم الفضيلة، حتى ولو كان الزج به إلى حين نسيان القصة. ويقال إن يوسف مكث في السجن مدة سبع سنوات(١٢).

الدروس والعبر

إن هذا الفصل بمشهديه، يلقي الأضواء على نفوس بعض النساء، وطريقة تفكيرهن وتوجهاتهن، وذلك حين يعرض اجتماع عدد قليل من نساء المدينة في زاوية منها، ثم يعرض، بعد ذلك، تواجد عدد أكبر من النساء في بيت امرأة العزيز بدعوة منها. إن الاجتماع الأول يعطي صورة حية لاجتماعات نسائية مماثلة تأخذ مكانا على مرّ العصور، فهنالك بعض النساء اللاتي يجدن متعة في تكريس الوقت الأكبر من حياتهن لتناقل الأخبار الخاصة، والتعليق عليها، ثم نشرها أينما ذهبن. ومن هنا فاجتماع نسوة المدينة يقف كرمز لاغتياب الآخرين، في وقت تتشابه به النفوس والتطلعات بين من اغتاب ومن اغتيب. اما بالنسبة للاجتماع الثاني، فيدور

في محوره حول الحيلة التي دبرتها امرأة العزيز في بيتها، لبعض النساء، من أجل وضع حد لاغتيابهن لها. وبتلك الحيلة كما رأينا سابقا، كشفت عن تمني كل المدعوات، ليوسف، من أول وهلة. على أن كل ذلك يشير إلى أن الكيد المتمثل في الاغتياب قد يقابل بكيد مثله لوضع حد للأمور. ولكن ذلك يعني بدوره استنزاف الطاقات نحو التخطيط والتنفيذ للشرّ، بدلا من التوجه نحو العمل البنّاء. وهذا ما يحمل في طياته ضررا لأي مجتمع معني بالأمر. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التوجه نحو الشرّ، وتوسيع دائرته، لا ينجح، بل ينتهي بالفشل حين تدور الدائرة الزمنية وتكشف الأمور على حقيقتها، ومن هذه الزوايا، يحمل الفصل معه عِبَرا ودروسا.

الاعجاز في الاسلوب

هذا من ناحية الوعظ الذي يبرز الإعجاز القرآني في المعنى، اما من ناحية الإعجاز في الاسلوب، فالفصل زاخر بالصور الحية التي تدعو إلى التأمل والتفكير بما يجري من غرائب نابعة عن الشر على مسرح الحياة. إن مشهد دعوة امرأة العزيز لنسوة المدينة بالغ في الغرابة، فهذه قاعة من القصر تتسع لخمسين من النسوة حسب التقديرات، كلهن أتين للترفيه عن النفس، ومسترخيات في جلستهن، دون حسبان لأيّ حيلة تنتظرهن، يتسامرن، وهن يقطّعن الفاكهة او غيرها. ولكن ما أن تمضي لحظات، حتى تصوّب كل العيون على وجه فتى بالغ في الجمال، إنه وجه يوسف، فتبهر تلك العيون ولا تستطيع التطلع لأيّ شيء آخر فتغرس السكاكين بالأيدي بدل الفاكهة وتثخن الجراح، وتستفيق النسوة على آلام في الأيدي. ومع استفاقتهن، يعلو صوت امرأة العزيز باللوم عليهن لاستنكارهن حبها ليوسف، فتشفي غليلها، وترغمهن على التعاضد معها للضغط على يوسف لتلبية رغباتها. فتحصل على معاضدتهن، لكنها تخسر يوسف الذي التجأ إلى السماء، ورمى بهن عرض الحائط، حين فضل سجن الحياة على سجن النفس. وبهذا ظهر في أبهى صورة أخلاقية ممكنة، يقتدى بها في وقت كان يؤهب فيه للنبوة؛ في حين أن امرأة العزيز ظهرت في صورة منكرة، مع من عاضدها، حينئذ. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن توجيه القصة نحو التقدير العظيم لمواقف يوسف من كيد النساء، مقابل تنفيره

من الكائنات، دليل آخر من دلائل الإعجاز في الاسلوب القرآني.

ولكن بالعودة إلى مجريات القصة، فالسؤال الذي يراودنا الآن كالتالي: ماذا جرى ليوسف بعد ما زجّ به في السجن؟ هذا ما سوف يتم التركيز عليه في الفصل القادم.

الهوامش

١ ـ ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، **انوار التنزيل واسرار التأويل** (دار الفكر، ١٩٨٢)، ص. ٣١٣.

٢ ـ وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، جزء ١١ (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩١)، ص. ٢٥٣.

٣ ـ عبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، جزء ١٢ (بيروت: دار الفكر العربي، لا. ت.)، ص. ١٢٦٦.

٤ ـ البيضاوي، **المصدر السابق**، ص. ٣١٣.

٥ ـ ابن كثير، **قصص الأنبياء** (عمان: مكتبة دار الثقافة، ١٩٨٩)، ص. ٢٤١.

٦ ـ الخطيب، **المصدر السابق**، ص ص. ١٢٦٨ـ١٢٦٩.

٧ ـ الزحيلي، **المصدر السابق**، ص ص. ٢٥٤ـ٢٥٥.

٨ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢٥٥.

٩ ـ محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، جزء ١١ (دار التراث العربي، ١٩٧٨)، ص. ٧٨.

١٠ ـ الزحيلي، **المصدر السابق**، ص. ٢٥٦.

١١ ـ البيضاوي، **المصدر السابق**، ص. ٣١٤.

١٢ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٣١٤.

الفصل الرابع

يوسف في السجن: نشاطه وشعوره

لقد تزامن دخول يوسف إلى السجن مع دخول شخصين آخرين من خدم الملك الخاص وهما خبازه وساقيه بتهمة محاولة تسميمه، حيث وردت تفصيلاتها كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»، البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس:

> إن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فاستجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسمّ الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما مع يوسف (١).

اذن، فبينما يضم السجن اشخاصا متمردين، او أشخاصا عزفوا عن التمرد في آخر لحظة، لكنهم وضعوا رهن التحقيق، فهو يضم، في الوقت نفسه، أشخاصاً أبرياء تمّ وضعهم فيه بسبب مواقفهم العظيمة ضد الجنوح الأخلاقي، كما كان الحال مع يوسف بكل اخلاقيته وعلمه. وبهذا الإطار، فالسجن كان ملتقى للتناقض.

المشهد الأول

يبتدئ هذا المشهد بخطاب موجه ليوسف من قِبَل الخبّاز والساقي، لتأويل رؤى ظهرت لهما في منامهما، كما يتجلى من الآية الكريمة التالية:

> «ودخل معه السجن فَتَيان قال أحدهما إني أراني أعصر

خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين» (٣٦، سورة «يوسف»)

تكشف هذه الآية عن علم يوسف في تفسير الرؤى، وسعي حثيث من جانبه للاستفادة من معرفته في هذا الصدد. والجدير ذكره هنا، أن معرفته تلك، كانت متوقعة في هذه المرحلة من حياته. فالقصة التي افتتحت برؤيا يوسف التي كانت تنبىء بمستقبل روحي ودنيوي عظيم له، تضمنت ايضا آية «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث». إذن، كان دخول يوسف السجن الذي، جعله الله تطهيرا له من الميل للمرأة، قد أصبح المرتكز الأول للشهرة الروحية[٢]، ففيه بدأ بالتبليغ إضافة إلى تأويل الرؤى. على أنه بالنسبة لِما رآه كل من الساقي والخباز، كما ورد بالآية الكريمة، فمن الواضح بأن الرؤى هنا تتركز على الحياة الخاصة لكل منهما، مما يعني بأن ما يراه الإنسان في منامه قد يدور في بعض الأحيان حول أحداث تخصه في حاضره وفي مستقبله. وقد قال الساقي «إني أراني أعصر الخمر»، أي كما ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

يعني عنبا... وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأني في بستان واذا فيه أصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه[٣].

أما الخباز فقال «إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه»، أي:

إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها[٤].

فكيف كان رد فعل يوسف عند سماعه لما جاء به الفتيان، هل تقدم رأسا إلى تأويل ما رأياه؟ ام أنه تأخر بالردّ لهدف جليل؟

«قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن

يأتيكما ذلكما مما علّمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون» (٣٧، سورة «يوسف»)

تبين هذه الآية الكريمة أن يوسف لم يذهب رأسا إلى تأويل الأحلام كما طلب منه لحكمة تتمثل كالآتي: إن حرص الساقي والخباز على الاستماع لتأويل ما رأياه سوف يلزمهما بالاستماع إلى ما سيقوله يوسف قبل تحقيق هدفهما. وفي هذه المرحلة التي دخل فيها يوسف إلى طور النبوة، فقد فتح له أول باب للتبليغ.. مهمة صعبة تتطلب قبل أي شيء آخر، إثبات نبوته بالدلائل والبراهين بقصد تصديقه. وبما أنه حظي بمعرفة سماوية بصدد مأكل الناس، فقد قال لهما إنه لا يأتيهما شيء من الطعام إلا وأخبرهما بإظهار كنهه وكيفيته قبل حصولهما عليه. وبذلك، بيّن لهما أنه مدعم بمعجزة من السماء، فإذا تمكّن من إعطائهما معلومات دقيقة عن ماهية الطعام وكيفيته، تكون قدرته على تأويل الرؤى ثابتة. وبهذا المنهج، كان حديثه عن معجزته بالإخبار عن الغيوب، قد فتح الباب للحصول على ثقتهما به كنبي يبلّغ رسالة ربه أولا، ويفسّر الرؤى ثانيا.

وبالحديث عن معجزته كنبيّ، مضى يوسف في خطوة اخرى للكشف عن الأسباب التي دعته لعدم الإلتفات الكلي إلى ملة القوم. فهؤلاء لم يؤمنوا بالله تعالى، ولا باليوم الآخر. ولكن بما أن يوسف كان على التوحيد والإيمان الصادق، فكان لا بد له من الاعراض عنهم، وعدم موافقتهم على ما كانوا عليه. على أنه بموقفه هذا بيّن لهما أن قواعد الدين الأساسية قائمة على الإيمان بالله تعالى وحده، إضافة إلى الإيمان باليوم الآخر. وبوصوله إلى هذه النقطة، توجه يوسف لإظهار انتمائه إلى بيت النبوة، بغية الحصول على مزيد من الثقة به، وعلى أكبر قسط من الإنتباه إلى ما سوف يبلغهما به:

«واتّبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» (٣٨، سورة «يوسف»)

بدأ يوسف هنا بتعريف صفات الأنبياء، على أساس أنهم يشكلون مثلا أعلى يحتذى به. فقد كان لإبراهيم وإسحق ويعقوب شهرة عظيمة بين الناس، إضافة إلى منزلتهم الروحية العظيمة. وبالعلم الذي تلقوه من السماء، وبالدلائل والبراهين التي رأوها في الوجود لإثبات وحدانية الله تعالى، فما كان لهم أن يشركوا بالله من شيء. أي أنهم التزموا بالتوحيد، وعدم الشرك بالله، وهذا فضل من الله تعالى عليهم كأنبياء وعلى الناس أجمعين، لكن هذه النعمة العظيمة لم تلق تقديرا من الكثيرين من أبناء البشر، الذين توجهوا إلى الشرك بالله تعالى بدل تقديم الطاعة له وحده. إن حديث يوسف للفتيان هنا يبيّن أن التوحيد يمثل النقطة الأساسية في الدين، التي على الرغم من أهميتها بالنسبة لحياة الفرد والجماعة الإنسانية، لا تتبع من قِبَل من لا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل. وما أن فرغ يوسف من لومه غالبية الناس لجحودهم بفضل الله تعالى، الواحد الأحد، حتى توجه الآن للفتيان بالسؤال الآتي:

> «يا صاحبيّ السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهّار» (٣٩، سورة «يوسف»)

إن توجه يوسف للفتيان بهذا السؤال يظهر التدرج المنطقي في اسلوبه بالتبليغ، ويحمل معه أيضا، محاولة لإثارة التفكير لديهما بعد تقرير للتوحيد، وفيه يبلغهم بما يلي:

> إن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه(٥).

إذن، لقد بين لهم يوسف هنا، أن لا وزن ولا قيمة للآلهة التي يعبدونها، فكل شيء يخضع للمشيئة أو الارادة الإلهية. ولتأكيد نقطته بصدد زيف آلهتهم وعدم جدواها القطعي، استأنف يوسف قوله للفتيان، وغيرهما ممن كانوا في السجن:

> «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم

ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٤٠، سورة «يوسف»)

إن ما تعبدون من دون الله ليس إلا أسماء أطلقتم عليها أنتم وآباؤكم بلا حجة ولا برهان ولا بأمر من الله تعالى، فأصبحتم وكأنكم تعبدون أسماء جوفاء مجردة من كل فعالية أو قوة، وتلك الآلهة لا تنفع ولا تضر ولا تجيب دعاء المحتاج وهي مرفوضة، قطعاً، في المجال الروحي. وعند هذه النقطة، أخبرهم يوسف أن الحكم في أمر العباد لله وحده، فهو الخالق للكون وما فيه، وكل شيء خاضع له، وبذلك، فهو وحده المستحق للعبادة، وليست تلك الأوثان التي سموها آلهة. إن عبادة الله تعالى هي الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يستطيعون أن يميزوا بين ما هو معوجّ وبين ما هو قويم أو صحيح. ومن الواضح هنا، أن يوسف قد تحدث معهم باسلوب قائم على العقلانية، وقوة الإقناع. وقد جاء وصفه كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

بيّن لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فان استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فيخبطون في جهالاتهم(٦).

بإظهار تلك الصلة بين الإيمان والعقل، أصبح الوقت مناسبا لكي يتقدم يوسف بتفسير ما رأياه الفتيان، بموجب طلب سابق منهما، كما ذكر سابقا. وهنا يظهره السياق وهو يقول لهما بأسلوبه الودي:

«يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان» (٤١، سورة «يوسف»)

أي يا صاحبيّ في السجن، إن الساقي منكما سوف يحظى بالخروج من هذا المكان ويعود إلى وظيفته السابقة في سقاية سيده الملك خمرا، بيد أنه فيما يختص بالخباز، فسوف يخرج أيضا من السجن، ولكن مع صدور أمر بصلبه. وبالوصول إلى هذا الحد، اخبرهما عن إتمامه لتفسير ما رأياه مع تأكيد لهما بأن حكم الله تعالى وجب عليهما، وهو، بلا محالة، واقع، سواء صدقا ام كذبا به. وبمناسبة تركيز القصة على موضوع الرؤى، فيجب أن نذكر أن الرؤيا الصحيحة تنسب عادة إلى الإنسان المؤمن، وفيها يقول الرسول (صلعم) «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». وقال، «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له»(٧). أما الساقي والخباز، فلم يكونا مؤمنين، بدليل أن يوسف قام بتبليغهما بأهم قواعد الدين كما ذكر أعلاه، ولكن يفترض بأن رؤيتهما لأشياء صحيحة يمكن ان تفسر على اساس أنها وردت لإظهار الحق أمامهما. فالشخص الذي يرى دلائل في حياته الخاصة، قد يسرع إلى تقبل الموعظة والإرشاد، إلا في حال تغلغل الكفر في صدره، والجهل في تفكيره. ويحسن بنا، أن نذكر هنا، أن موضوع الرؤى وأنواعها قد شغل الفقهاء وأهل العلم من المسلمين لفترة طويلة. وهذا ابن خلدون مثلا يقول في مقدمته:

> «الرؤى ثلاث: رؤيا من الله؛ ورؤيا من المَلَك؛ ورؤيا من الشيطان». فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل؛ والتي من المَلَك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير؛ والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث(٨).

وبهذا التقسيم، فإن رؤيا كل من الساقي والخباز تصنف تحت النوع الثاني من الرؤى بموجب افتقارها إلى تأويل.

ولكن بالعودة مرة اخرى إلى قصة يوسف، فماذا جرى بعد تأويل يوسف لرؤيا كل من الساقي والخباز؟ هذا ما تحمله الآية الكريمة التالية:

«وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين» (٤٢، سورة «يوسف»)

يظهر السياق هنا، ساقي الملك الذي بشره يوسف بالخروج من السجن «للذي ظن» «يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم» وهو في طريقه الفعلي للمغادرة[٩]. في هذا الوقت، وقف يوسف معه وهو يقول له «اذكرني عند ربك». إن طلب يوسف هذا مثير للتأمل والتفكير. فكلمة «اذكرني» تكشف عن ضيق من جانبه لإهماله. صحيح أنه فضل سجن الجدران على الرضوخ للنزعات النفسية، إلا أنه بحكم براءته، ظن بأن اقامته في السجن لن تكون طويلة، لكنّه ظنٌ تناقض مع واقعه، وإلا لما طلب من الساقي أن يتحدث عن حاله عند سيده، وهو الملك الأكبر. فإذا كان وضعه بالسجن منذ البداية يشكل ظلما اجتماعيا، بالرغم من رضاه وقتئذ، فإن الإطالة في سجنه، وعدم السؤال عنه لظلم أكبر، وحين يأتي السياق بتعبير «اذكرني عند ربك»، يلفت انتباه الإنسان إلى تفاقم الظلم، احيانا، بحق بريء.

ولكن هل بادر الساقي إلى تنفيذ رغبة يوسف أمام الملك بعد أن عاد إلى وظيفته الأصلية في القصر؟ أم أنه نسي ما أوصاه به، في خضم الحياة وملهياتها؟ من الجليّ، أن تيار الحياة جذبه، فنسي المبادئ الروحية التي استمع إليها من قبل يوسف وهو في السجن، ونسي المبادئ الأخلاقية النابعة من القوانين الروحية، كما نسي، مع كل ذلك، أمر يوسف إلى حين. وهذا ما يفسره التعبير القرآني «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي أن الشيطان، الذي يزين الدنيا ومباهجها ومتاعها للإنسان، أنساه، لفترة، ذكر قضية يوسف، ومأساته في السجن، أمام الملك[١٠]. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن القرآن الكريم يركز مرارا وتكرارا على دور الشيطان الرجيم في إبعاد الكثيرين عن الدين القويم، ويحذر من مغبة ذلك:

> «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله» (١٩، سورة «المجادلة ٥٨»).

وانطلاقا من عدم إثارة قضية يوسف أمام الملك، فقد بقي بين جدران السجن لبضع سنين. وفي تقدير معظم المفسرين أن «البضع» في هذه الآية، تشمل سبع سنوات. قال وهب:

> أصاب أيوب البلاء سبع سنوات وترك يوسف في السجن سبع سنوات[١١].

وبهذا يتشابه الأنبياء في مواجهة الشدائد والصبر على المكروه والظلم الاجتماعي.

الدروس والعبر

بعد هذا العرض للأحداث القصصية، نذكر أن هذا الفصل الذي يحتوي على مشهد واحد، يعنى بتصوير السجن.. دخلاؤه من أبرياء ومتهمين، مشاكلهم، مخاوفهم، وحاجتهم للالتفاف حول شخص قوي، لطيف، يحاكيهم بالمنطق. لقد كان يوسف هو الشخص القوي بإيمانه، بعلمه السماوي، بأخلاقه، وبأسلوبه، فاستطاع أن يجمع من كان حوله، ويحاول بكل جهده لإصلاحهم من خلال رسالته. وفي سعيه هذا، كان من الطبيعي أن يبدأ بدعوتهم لعبادة الله تعالى وحده، لا شريك له، تلك العبادة التي تطهر النفوس، وتنير الأفكار، وتجلب الطمأنينة إلى القلوب، وتصقل الشخصيات. وبهذا المفهوم تفتح الأبواب للسجناء للتغيير والتوجه نحو الخير، ولكن لو استوعبوا الدرس، وعملوا به. فالتغيير إذن، مشترط بمدى تقبلهم للمبادئ السماوية ومدى استعدادهم للالتزام بها. ومهما يكن، فإن نشاط يوسف بالسجن يبيّن أنه حتى في مثل هذا المكان المغلق، يمكن للإنسان أن يقوم بمحاولة إصلاحية. صحيح أن يوسف كان نبيا مكلفا بالتبليغ، وله مكانته الروحية الخاصة بحكم ذلك، ولو حصل أن زجّ بإنسان متميز بعلمه واخلاقه دون ذنب اقترفه، كما حدث ليوسف، فالقصة القرآنية توجه نحو ضرورة استغلال علمه لإصلاح النفوس المعوجّة قدر المستطاع. ومن الجدير بالذكر هنا، أن الساقي والخباز أظهرا شغفا للاستفادة من معرفة يوسف في مجال تفسير الرؤى في وقت تملكهما الخوف مما قد يحدث لهما، لأن مشكلتهما كانت مع الحاكم الأعلى في البلاد، لذلك، لا بد وأن البريء منهما، أي الساقي، كان خائفا من إلصاق تهمة إدخال السم في شراب الملك، خصوصا، وأنه تقبل الفكرة بالبداية، ولم ينبذها، إلا بعد ان أدرك خطورتها في آخر لحظة. وفي الوقت نفسه، لا بد وأن المتهم الحقيقي، أي الخباز، كان خائفا من العقاب بحكم وضعه للسم في طعام الملك لقاء رشوة من بعض أعيان البلاد وقتئذ، تقبلها في لحظات ضعف، وفقدان لوازع الضمير. المهم في الأمر هنا، أنه بعد خروج الساقي والخباز من السجن، وصلب الأخير منهما، لم

تتحدث القصة عن أيّ جنوح من جانب الساقي، نحو فعل الشرّ، كنتيجة للطمع بالمال. ولكن ما يؤخذ عليه حقا، هو انشغاله في الحياة، ونسيانه إنساناً بريئاً، مظلوماً، كرس وقتا كبيرا لإعطائه دروسا بالدين والأخلاق.. نسيها أيضا، لفترة، بسبب استحواذ الشيطان عليه.

إن القصة تبين، في أحد جوانبها، أن من يدخل السجن بتهمة فعلية، أو بمحاولة فعل الشر ويتراجع، كيف يخرج بسهولة، في حين يذكر أن الذي يزجّ به لامتناعه عن السير في طريق الغواية، كما كان الحال مع يوسف، فقد يُنسى لوقت طويل، مما يدفع به للطلب من هذا أو ذاك للكشف عن قضيته. ويجب أن نبيّن هنا أنه مع رغبة يوسف بالدخول إلى السجن، ومع القوة التي امتلكها، والنشاط في التبليغ، وتأويل الرؤى، كان انساناً يشعر بالمرارة لعدم وجود من يعطف على حاله، ويخرجه من بين الجدران المغلقة. إن طلبه من الساقي بشرح قضيته للملك، يحزن القارئ حقا.. ولكن مثل هذا الحزن يزول بعد إدراكه بأن لو عمّ ظلام في حياة إنسان بريء نتيجة لخبث وكيد البعض له، فلا بد وأن يستبدل، في النهاية، هذا الظلام بالنور. والرحمة الإلهية موجودة دائما لإنصاف المظلومين، وتبديد خوفهم، وإعلاء شأنهم بعد طول معاناة وصبر. وقد تمّ الإفراج عن يوسف بعد سجن دام سبع سنوات، ولكن كيف حصل ذلك؟ هذا ما سيكشف عنه في الفصل القادم.

الهوامش

١ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٠٥ .

٢ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٥ .

٣ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

٤ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٦ .

٥ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٩ .

٦ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٩ .

٧ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة**، جزء ٣ (القاهرة: لجنة البيان العربي، لا. ت.)، ص. ١٠٨١.

٨ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ١٠٨٣ ـ ١٠٨٤.

والجدير بالذكر هنا، أن موضوع الرؤى والأحلام لاقى اهتماما من الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين». راجع أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **احياء علوم الدين**، جزء ٤ (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لا. ت.)، ص ص. ٥٠٤ ـ ٥١١ .

بالإضافة إلى ذلك، فبصدد الإهتمام بعلم الرؤى والأحلام يقول ابن خلدون:

> ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين، وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرماني فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون واكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره، وكتاب الإشارة للسالمي.

المصدر السابق، ص. ١٠٨٤.

٩ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٠.

١٠ ـ ان بعض المفسرين يعتقدون أن العبارة القرآنية «فانساه الشيطان ذكر ربه»، تنسب ليوسف نفسه. فقد ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير» ما يلي:

«فانسى (الشيطان) يوسف ذكر الله حين وكّل امره إلى غيره».

المصدر نفسه، ص. ٤١٠.

ولكن معظم المفسرين يأخذون بالتفسير الأول، وهو نسبة النسيان إلى الساقي، كما ورد الشرح في سياق الفصل.

المصدر نفسه، ص. ٤١٠.

١١ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤١١.

الفصل الخامس

خروج يوسف من السجن: علم التعبير والتبرئة

إن خلاص يوسف من السجن بعد طول نسيان من المسؤولين، أتى من عند الله تعالى، الذي يفيض برحمته على كل مظلوم وقع فريسة الكيد الخبيث. فالله جلّ وعلا يبطل كيد أبناء البشر بعلم لا يحدّه شيء، وحكمة فائقة، وتدبير تام من حيث الإحكام. وعندما يتقهقر الكيد البشري أمام الكيد الإلهي، يرى الشخص منا ضحالة هذا الكيد، وتفاهة وسخف وسطحية المدبرين له، الذين دفعهم غرورهم، وشعورهم بقوة زائفة إلى إلحاق المكر السيء بالأبرياء. إن الكيد البشري محدود وخاضع للشر، في حين أن الكيد الإلهي شمولي ونابع عن علم وحكمة وعدل مطلق، لذلك فهو يحدث دويا هائلا عند حصوله، يرتفع من خلاله إنسان صابر مظلوم إلى الأعالي، وتهوي به عصبة إلى الحضيض مهما بلغت مكانة افرادها. ومن هنا يتمّ النصر للشخص المدعم من الله، الواحد الأحد، على الجماعة، وذلك ليتذكر الإنسان أن القوة كلها بيد الله تعالى، الذي يعدل الموازين بقدرته عند إحداث التواء بها من قبل بعض المتوجهين للشر:

«ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» (٣٠، سورة «الانفال ٨»).

«ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» (٤٣، سورة «فاطر ٣٥»).

«كتب الله لأغلبن انا ورسلي إن الله قوي عزين» (٣١، سورة «المجادلة ٥٨»).

المشهد الأول

يبتدئ المشهد الأول بالتركيز على الملك (فرعون مصر) وهو في حالة من الاضطراب والخوف من جهة، والرجاء من جهة أخرى.. قلق من رؤيا له.. وتطلع بشغف إلى من يستطيع تأويلها له. ذلك، لأن تلك الرؤيا تحمل في معناها العام قهر الضعيف لما هو قوي:

«وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع

عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون» (٤٣، سورة «يوسف»)

والواضح من كلام الملك أن تفسير الرؤى كعلم، لم يكن شائعا في مصر وقتئذ، بدليل أن الملك الذي طلب من الملأ - الكهنة والسحرة والمنجمين - أن يخبروه عن تأويل رؤياه، قال «إن كنتم للرؤيا تعبرون» ويعني بذلك:

إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير المختص بتفسير الرؤيا، وسمي هذا العلم تعبيرا لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها، وهذا اخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره(١).

على أنه فيما يختص بردِّهم، فكان كالتالي:

«قالوا أضغاث احلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» (٤٤، سورة «يوسف»).

إن أول ما يلفت نظر القارئ في ردِّهم، تصنيف رؤيا المِلك في باب أضغاث الأحلام، أي المنامات غير الصحيحة، اذ يوجد في عالم الرؤى ما يسمى بالرؤيا الصالحة، وما يدعى بأضغاث احلام. فالأخيرة يصفها ابن خلدون في «مقدمته» كصور «في الخيال في حالة النوم» أو كصور موجودة «في الحافظة التي كان الخيال اودعها إياها في اليقظة»، في حين أنه يصف الرؤيا الصالحة كالصور المنزلة «من الروح العقلي المدرك»(٢). من هذا التقرير، يبدو جليا أن العلماء والحكماء في البلاد، قد قصروا في تصنيف رؤيا الملك، فوضعوها تحت باب المنامات الباطلة، بينما الأحداث المقبلة تظهرها ضمن المنامات الصادقة. وقد اعترفوا، في خطوة أخرى، بقصور علمهم بصدد تأويل الأحلام «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

إذن، حتى هذه النقطة، فالأحداث تبلورت كالآتي: ملك تواق إلى تفسير رؤيا،

دؤوب في بحثه عمن يستطيع تأويلها.. وحشد من العلماء والحكماء يفشلون في تأويل تلك الرؤيا، بل وحتى في تصنيفها.. ثم وجود شخص بالقصر مرٌ من سنوات بتجربة ناجحة، عندما وجد من يؤوّل له رؤيا تحققت في عالم الواقع، ألا وهو ساقي الملك.. ثم وجود شخص عليم، يبلّغ وينذر ويحمل المفاتيح لحل الأزمة الموجودة في القصر، لكنه قابع في احد جدران السجن، ومنسي منذ سنوات.. فكيف يمكن أن تتجمع الأمور كلها حول مرتكز واحد لحل الأزمة التي شغلت الملك، وجهاز الدولة، بمن فيه من رجال علم ومعرفة؟ هنا، يرى الإنسان الكمال في التخطيط الإلهي.. الذي يضع يوسف في محور الاهتمام.

وفي حسن الرعاية الإلهية التي افاض بها الله عزّ وجل على يوسف، لم يكن مستغربا أن يتذكر الساقي، الذي نجا كما بشّره سابقا، يوسف، صاحب تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه الذي صلب، حتى ولو بعد هذه المدة الطويلة. وبذلك، خاطب الملك قائلا: يوجد في السجن رجل صادق حليم يمتلك العلم المتطلب لتعبير الرؤى، وطلب منه إرساله إليه، ليأتيه بتفسير الرؤيا. فوافق على طلبه، وأرسله إلى السجن، مكان وجود يوسف وقتئذ. فالسجن كما روى ابن عباس، لم يكن في المدينة(٣).

«قال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمَّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون» (٤٥، سورة «يوسف»)

المشهد الثاني

ومع وصول الساقي إلى السجن يفتح الستار في هذا المشهد عنه وهو يلتقي بيوسف، ذلك الإنسان العظيم، والنبي الكريم، الذي بعث الطمأنينة في نفسه وقت ضيق ومعاناة، عندما بشّره بالخروج من السجن قبل سنوات. ولكن تبعا للأسلوب القرآني في «الإيجاز»، فلم يتطرق السياق للحديث عن لحظة اللقاء وما انتابها من احاسيس ومشاعر متفاوتة لكل منهما، بل ركز رأسا على النقطة المعنية بالأمر.. نقطة تأويل رؤيا الملك التي شغلت السلطة، ورجال العلم والمعرفة:

«يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» (٤٦، سورة «يوسف»)

لقد سمى الساقي يوسف هنا صديقا على أساس أنه:

لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن(٤).

بعد مخاطبته بالصديق، استطرد الساقي قائلا، أخبرنا عن تأويل رؤيا الملك التي ذكرتها لك كي أعود إليه وإلى من حوله من أصحاب العلم والمعرفة، بتأويلها، لعلهم يدركون عندئذ منزلتك ومكانتك في العلم فيطلبوك، ويخلصوك من محنة ومعاناة السجن. وهنا، اقدم يوسف على تأويل الرؤيا كالآتي:

«قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن إلا قليلا مما تُحصِنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصِرون» (٤٧، ٤٨، ٤٩، سورة «يوسف»)

بالنسبة لشرح هذه الآيات، ورد ما يلي في كتاب «صفوة التفاسير»:

تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة «فما حصدتم فذروه في سنبله» أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوّس «إلا قليلا مما تأكلون» أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله... ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس... تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء... إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة...

ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة عام رخاء، فيه يمطر الناس ويغاثون. وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه(٥).

على ضوء هذا الشرح عن الزراعة والحصاد، نذكر أن تأويل يوسف للرؤيا يحمل في طياته معانٍ أزلية بالنسبة للأمم، فحياة الأمم، لا تسير على وتيرة واحدة، بل تتأرجح بين فترات خصب وفترات قحط.. بين رخاء وكساد.. أو غنى وفقر.. اذ أن الزراعة من الموارد الأساسية المتطلبة لبناء اقتصاد سليم. ولكن للمحافظة على المجتمع من خطر الجوع والفقر، وما يجره من أوبئة وكوارث على حياة الشعوب، ينبغي على المسؤولين أن يكونوا على مستوى سليم من الوعي واليقظة: بحيث يحيطون المزارعين علما بالوسائل التي تكفل الحفاظ على حصيلة سنوات الخصب، لاستخدامها في سنوات الجدب. والقصة هنا تزود الإنسان بأفضل الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف في أيِّ مجتمع زراعي، على أن ادخار حصيلة سنوات الخصب لسنوات الجدب، يحمي الأمم من الكوارث الاقتصادية، التي لو تفاقمت فسوف تهزها هزا، بل وتطيح بها في كثير من الأحيان. هذا من جهة، أما من جهة اخرى، فإن تأويل يوسف لرؤيا الملك، يشير إلى تساوٍ بين عدد سنوات الرخاء وسنوات الجدب في حياة الأمم... سبع سنوات بسبع سنوات.. تنتهي بانتهائها كلها دورة تاريخية، لتبدأ بعدها دورة اخرى جديدة متميزة بالخصب، وما يتبعه من رخاء وازدهار وأمل مشرق بحياة آمنة.

المشهد الثالث

ولكن، بالعودة ثانيةً إلى أحداث القصة، بعد رجوع الساقي وإخباره الملك بتأويل يوسف لرؤياه، يظهر هذا الملك وهو يطلب احضار يوسف بين يديه. وطبيعي أن مثل هذا الطلب كان متوقعاً.. فَمَلِكٌ يرى في منامه رؤيا يحس أهميتها دون أن يدرك معناها الخاص، لا يمكنه إلا أن يستدعي من تمكن من تأويلها، وخصوصا بعد فشل من ظن بهم القدرة على تحقيق الهدف. فيوسف أصبح، من الآن، يحتل الصدارة في العلم، ويتقدم على سواه، ولو أنه كان في السجن. وبطلب من الملك هذه

المرة، عاد الساقي ثانية إلى يوسف، الذي رفض الخروج، إلا بعد الحصول على البراءة العلنية من امرأة العزيز، ونسوة المدينة:

> «وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن ايديهن إن ربي بكيدهن عليم» (٥٠، سورة «يوسف»)

إن موقف يوسف هذا، يحمل حكمة كبيرة في ثناياه. فلو خرج من السجن بناء على تقدير الملك لعلمه، دون حصوله على البراءة مما اتهم به حين وَضعه بالسجن (وهو مراودته لامرأة العزيز) لبقي موقفه حرجا أمام الجميع، ولتعرّض، مجددا، إلى كيد أكبر. فإذا لم تستأصل بذرة الكيد فإنها ستعود إلى الانتعاش في الوقت المناسب، لأن كيد النسوة له كان كبيرا، مؤلماً ومجحفاً بحقه، ولا يعلم أثره على نفسه المبتلاة غير الله عزّ وجل. ومن هنا قال يوسف «إن ربي بكيدهن عليم»:

> يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة(٦).

فهل استجاب الملك له؟ وهل أولى الأمر اهتماما كافيا؟ من المؤكد أنه فعل ذلك، كما يتجلى في، قوله الكريم:

> «قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» (٥١، سورة «يوسف»)

إن كلمة «خطبكن» تبيّن اهتمام الملك العظيم بقضية يوسف، فالخطب باللغة «الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته....» كما ورد في كتاب «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا(٧). وبصدد اهتمام الملك بالقضية، أورد سيد قطب ما يلي:

فكأن الملك كان قد استقصى، فعلم امرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال،. ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه(٨).

في مواجهة تلك النسوة، وجه الملك لهن السؤال الآتي: هل لاحظتن أيّ ميل من جانب يوسف لكن؟ «قلن حاش لله» أي معاذ الله، ما علمنا عنه من خيانة في أيّ أمر من الأمور.. فهو عفيف بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وبشهادة كل النسوة، اللاتي قطعن ايديهن، بالعفة ليوسف، اقفلت كل أبواب المراوغة أمام امرأة العزيز، فوجدت نفسها مجبرة على الإقرار بالحقيقة أمام الجميع، واعترفت عندها بأنها هي التي دعت يوسف إلى نفسها، مؤكدة صدق ما قاله لزوجها العزيز، في صدد مراودتها له واستعصامه، عندما غلقت الأبواب منذ سنوات.

اذن، حتى هذه النقطة، فالموقف تمثل كالآتي: ملك يحقق في قضية اخلاقية ألصقت بإنسان بريء لما تمسك به من فضيلة، في عصر الإباحية... ونسوة أخذن بشاب جميل، وضغطن عليه للنزول عند رغباتهن، ثم اعترفن له بالعفة أمام الملك.. وامرأة خبيثة ماكرة شريرة تسببت في سجن هذا الإنسان البريء لسنوات طوال، اضطرت، اخيراً، للاعتراف بالحق أمام واقع جديد لا مفرّ لها منه.. وإنسان عظيم ينتظر تبرئته للخروج، ثانية، إلى ميدان الحياة، ورسول من عند الملك يعود إليه لإخباره بهذه البراءة.. وشرح من جانبه لأهمية حرصه على نيلها:

«ذلك ليعلمَ أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» (٥٢، سورة «يوسف»)

إن تميز يوسف بالأخلاق العالية أثار في نفسه نوعا خاصا من الحساسية عندما اتهمته امرأة العزيز بمراودته لها. فهو لم يستجب لإغرائها، وذلك من منطلق العقيدة والمبدأ، وتقديراً منه لأفضال زوجها عليه.. الذي أمّن له الراحة، وأوصاها بإكرامه، لأنه كان عنده بمنزلة الإبن الذي أراد تبنيه حيث رأى فيه خيرا ومنفعة مستقبلية لهما. والآن، بعد أن قاسى يوسف ما قاساه من منطلق تمسكه بالعقيدة والمبدأ وفضائل الدين، رأى الوقت مناسبا لتبرئة نفسه، بشهادة الجميع، من

مراودته لزوجة العزيز في غيبته كما ادعت، مختتما كلامه بقوله «وإن الله لا يهدي كيد الخائنين» بمعنى:

> إني لو كنت خائفا لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي... كيد الخائنين(٩).

ولكن ومع تأكيد براءته للعزيز فقد أضاف ما يلي:

> «وما أُبرّىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم» (٥٣، سورة «يوسف»)

وفي صدد هذه الآية قال الحسن:

> إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما ابرىء نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا انفسكم ففي قوله وما أبرىء نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عزّ وجل فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد ازالة ذلك عن نفسه(١٠).

إن آية (وما ابرىء نفسي....) تؤكد مرّة اخرى، أن همَّ يوسف بامرأة العزيز كان همًّا نفسيا، كما ذكر سابقا، وتشكل، بناء على ذلك، دليلا آخر على عدم استجابة يوسف لمراودة امرأة العزيز بالإطار الفعلي عندما غلّقت الأبواب وقالت «هيت لك». وبالرغم من الموقف الحرج وصعوبته على يوسف كإنسان، فإيمانه بالله، زوده بالحصانة ضد الهمّ النفسي، فاستعصم.

الدروس والعبر

يحتوي هذا الفصل بمشاهده الثلاثة على عِبَر ودروس للإنسان من زاويتين: زاوية الفضيحة الأخلاقية للمرأة المتزوجة من رجل مهم (امرأة العزيز) ثم زاوية ظلم بعض المجتمعات لأصحاب العلم والفضائل والأخلاق، وإهمالهم لهم احيانا،

كعقاب لهم، بسبب تمسكهم بالمبادئ الروحية، وعدم مجاراتهم للمتحررين من قيود الأخلاق (وضع يوسف بالسجن). بالنسبة للنقطة الأولى، فالقصة تبيّن أن المضي في طريق المراوغة والكذب من أجل الإبقاء على سمعة امرأةٍ وزوجها (العزيز وامرأته)، من خلال زجّ إنسان بريء في السجن بسبب اتهامه بمراودة المرأة المعنية بالأمر، لا يجدي نفعا بالنتيجة. فالحقيقة ستظهر ولو بعد سنوات، طالما أن المُطالب بالحق والمدعم بالتأييد الإلهي موجود.. وعندما تكشف، ستكشف بالأسلوب القضائي، المبني على التحقيق والشهادة. وبهذا تأخذ الأمور طابعا رسميا وتنشر الحقيقة تلك من خلال وسائل الإعلام الموجودة في كل عصر، بأشكالها المختلفة. وهذا ما يفسر عدم النجاح في كبت ونسيان قصة امرأة العزيز كما خطط لها. وبناء على طلب يوسف بالتحقيق، فقد خرجت الأمور من يدها ويد زوجها، واضطرت للاعتراف بما فعلته... فصدرت براءة يوسف من القصر، ومن الملك نفسه، حاكم البلاد. وبهذا أصبح اسم يوسف مقترنا بالقوة والصلابة، والقدرة على صدّ الإغراء الذي أحاط به في أول شبابه، في حين أن اسم امرأة العزيز أصبح مقترنا بالخزي والعار والابتذال، كما أصبح يوسف المثل الأعلى للسمو الأخلاقي في حين أنها، أصبحت مثلا للانحدار الخُلقي. وبذلك، فالقصة توجّه نحو ضرورة الاقتداء بيوسف من حيث التصرف، بقوة الإيمان والحكمة والتعقل، وبالمقابل توجه النساء نحو الابتعاد عن اسلوب امرأة العزيز اللا أخلاقي، لأنه، لا يؤدي بالنتيجة، إلا إلى الخزي في الدنيا والآخرة.

اما فيما يتعلق بالظلم، لأصحاب العلم والفضائل، فالقصة ركزت على زجّ يوسف في السجن، ومعاناته لتميزه بالخلق العظيم والفضيلة والعلم في مجتمع سادت فيه اللا أخلاقية. ولولا رحمة الله تعالى عليه، بتدبيره لتأويل رؤيا الملك، لبقي يقاسي من نسيان أكبر.. يشفي غليل امرأة العزيز ومن نحا نحوها، لكن ومع ذلك، فالقصة تبيّن أنه بالرغم من وجود فئة حاقدة ظالمة لم تعرف قدر أهل العلم والأخلاق، فهنالك الملك - وهو الأهم - عرف قدرهم. وعلم يوسف في تفسير الرؤى، دفع بالملك لعمل المستحيل من أجل الحصول على صحبته والاستفادة منه. وبهذا

الإطار، توجّه القصة نحو ضرورة احترام أصحاب العلم والفضائل من قبل المسؤولين في أي بلد معني بالأمر. وصحيح أن يوسف كان نبيا، بكل ما هو مخصص له من منزلة روحية عظيمة، إلا أن رجال العلم من أصحاب الإيمان المستنير، يمكنهم أن يساهموا أيضا، بدفع عملية التقدم نحو الأمام قدر طاقاتهم. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كل هذه المعاني الأزلية تشكّل دلائل على إعجاز القرآن.

ولكن للانتقال ثانية إلى ساحة الأحداث، فماذا جرى بعد قول يوسف «وما ابرىء نفسي....»؟ هذا ما سيشكّل موضوعا للبحث في الفصل القادم.

الهوامش

١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٢.

٢ ـ ابن خلدون، **المصدر السابق**، ص. ١٠٨٣.

٣ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٥٥.

٤ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٣.

٥ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص ص. ٥٥ ـ ٥٦.

٦ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص ص. ٤١٥ ـ ٤١٦.

٧ ـ محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، جزء ١١ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، لا. ت.)، ص. ٢٦٦.

٨ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٩٥.

٩ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٧. والجدير بالذكر هنا، أن الآية «٥٢» تفسر على أنها كلمات لامرأة العزيز، من قبل بعض العلماء. فقد ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير» ما يلي:

> واختلفوا في قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) على قولين أحدهما أنه من قول المرأة... ومعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو السجن، ولم أكذب عليه، بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» يعني أني لمّا أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني

افتضحت لأن الله لا ينفذه ولا يسدده أو لا يهدي الخائنين بكيدهم... والقول الثاني إنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الغالبية من المفسرين والعلماء.

المصدر نفسه، ص ص. ٤١٦ ـ ٤١٧ .

١٠ ـ المصدر نفسه، ص. ٤٢٠ .

الفصل السادس

تولي يوسف لخزائن الأرض: اللقاء مع اخوته

بعد كشف كل الالتباسات التي احاطت بيوسف منذ سجنه حتى تأويله لرؤيا الملك الأكبر (فرعون مصر)، وما دار بعدها، تضافرت الأسباب لخروجه من السجن، ولكن وهو قوي كما يريد، وبقوته تلك التي نالت إعجاب الملك، افتتح الستار عن المشهد الأول من هذا الفصل، والملك يقول:

المشهد الأول

«وقال الملك إئتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين» (٥٤، سورة «يوسف»)

إن كلمة «أستخلصه» تعني باللغة اجعله خالصا لنفسي، فمن خلال تأويل يوسف لرؤيا الملك، ومن خلال رفضه للخروج من السجن قبل الحصول على البراءة، ادرك الملك أن يوسف كان شخصا فريدا من حيث الغزارة في العلم، والسمو بالأخلاق، والقوة في الإرادة، ثم الصبر، والثبات أمام الشدائد، والقدرة في التغلب على الصعوبات بالعلم والمعرفة والتبصر، والحكمة. وفي وقت توقع فيه الملك حدوث كارثة اقتصادية ـ اجتماعية في تاريخ مصر بموجب تأويل يوسف لرؤياه، رأى أن يوسف خير من يستطيع تقديم العون له بتحمله مسؤولية الحكم في وقت الشدة. وما يثبت ذلك، أنه بعد حوار بينه وبين يوسف عند وصوله للقصر، قال له «إنك اليوم لدينا مكين أمين»، أي صاحب منزلة رفيعة:

> يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد، وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت امانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا(١).

فماذا قال يوسف للملك، الذي أقرّ بفضائله ومناقبه في الأمور الروحية والدنيوية؟

«قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ٥٥،
سورة «يوسف»)

لقد طلب يوسف من الملك، أن يجعله واليا على خزائن الأرض، أي على كل ما يختص بالأموال والطعام والخراج في مصر. ولم يقدم على مثل هذا الطلب، إلا من منطلق علمه بكفاءته وقدرته الصحيحة على التخطيط والتدبير، وحسن التنفيذ. فيوسف بالنتيجة، كان الشخص الوحيد الذي تمكن من تأويل رؤيا الملك بنقاطها الدقيقة من حيث أسلوب تخزين الغلة في سنوات الخصب لسنوات الجدب أو القحط، وقد عرف ذلك من خلال فيض العلم السماوي عليه نظراً لمكانته الخاصة كنبي. وبما أنه هو الذي تلقّى علم التأويل بصدد أحداث مقبلة بتاريخ مصر، وعلم بالطرق الصحيحة لحل أزمة مقبلة، فمن البديهي أن يكون أكفأ رجل يقوم بالمهمة. فالعلم المعتمد على العقل قد يعجز عن تفسير بعض الأشياء، وإيجاد الحلول لها، في حين أن العلم الموحى (ليوسف) من السماء كان يحمل في طياته الحلول لمشكلة اقتصادية وإجتماعية إنسانية. وبهذا المنظار، يجب إدراك أهمية قول يوسف «إني حفيظ عليم». وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كل ذلك يرمي إلى تنبيه الإنسان إلى الابتعاد عن الغرور أو التوهّم بقدرة العقل في التغلب على كل أزمة، ومن ثم، توجيه هذا الإنسان نحو الدين، الذي يعلّمه وسائل الحماية من بعض الكوارث التي قد تعصف بكيانه، لأن العقل يسير جنبا إلى جنب مع الإيمان.

إن يوسف، الذي أفاض الله تعالى بعلمه عليه، ميّزه بتفكير مستنير، جمع بين كمال العلم بمصالح الدين إلى جانب العلم بمصالح الدنيا، وتثبّت في الأرض بالمشيئة الإلهية:

«وكذلك مكّنا ليوسفَ في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نُضيع أجر المحسنين»
(٥٦، سورة «يوسف»)

إن معنى التمكين هنا:

> هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله «يتبوأ منها حيث يشاء» لأنه تفسير للتمكين... واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء، فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير، فبنى العديد من الحصون والبيوت، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة ....(٢)

وبهذا، فقد ارتفع اسم يوسف، وأصبح في القمة، وهذه رحمة من الله تعالى أفاضها عليه بسبب تمسكه بالإيمان الصادق والمبدئي، وعندما أحاط به الإغراء من كل جانب.. وقاسى ما قاساه.. ودخل السجن حتى لا تميل نفسه إلى المرأة، ورضي بقسوته، وقيوده وأغلاله بدلا من الرضوخ لسجن النفس، وما ينبعث عن ذلك من ذل دائم.. رضي بقيود مؤقتة مريرة، لكنه كان يعلم بأن الله تعالى لن ينساه من فضله، وإنه سيخرجه، بتدبيره، من الأغلال ليواجه الحياة، ثانية، بعلم وقوة، وقد اكتسب شهرة ملأت الآفاق، إضافة إلى أجر أخروي أكبر:

> «ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتَّقون» (٥٧، سورة «يوسف»)

إن ما حصل ليوسف، كما هو مبيّن أعلاه، بأن على الإنسان المؤمن أن لا يستسلم لشهوات النفس مهما بلغت حدة الإغراء حوله، وأن يبني مقاومته تلك على أسس ثابتة من الإيمان الصادق، والتفكير السليم، حتى لا يصبح عبدا للنفس اللوامة، التي لا تجلب له إلا الخسران الدائم. وإذا تغلب على نفسه، فيصبح مالكا لزمام أمره، قويا، قادرا على مواجهة الصعاب، ومحفوظا بالرعاية الإلهية.

المشهد الثاني

بحفظ الله تعالى ليوسف، ورعايته له، وتثبيته في الأرض، تدخل القصة في طور جديد.. طور يتصل فيه حاضر يوسف بماضيه البعيد بالتخطيط الإلهي..

ماضيه المختص بعائلته وبإخوته. صحيح أن البعد الزمني كان طويلا بين الحاضر والأمس، إلا أن هذا لم يحل دون حدوث مفاجآت طالما أن الله تعالى أراد ذلك. والمفاجأة التي افتتح بها المشهد الثاني، تتمثل في وصول اخوة يوسف العشرة، إلى مصر، ودخولهم على صاحب خزائن البلاد:

«وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» (٥٨، سورة «يوسف»)

ان ما يثير الإنتباه في هذه الآية، عدم تمكن اخوة يوسف من التعرف عليه في الوقت الذي تمكن هو من معرفتهم. والأمر ليس مستغربا، فقد تلقى وحيا مسبقا بلقاء مستقبلي مع اخوته عندما رموه قي قاع البئر، كما ذكر سابقا. وعدم معرفتهم له أمر متوقع، لأن الفئة التي تحقد على شخص مّا من منطلق الحسد له، وتسعى للتخلص منه بالتخطيط والتنفيذ لمكيدة جماعية ضدّه، ينسى أفرادها هذا الشخص بمجرّد اختفائه الذي يشفي غليل حقدهم، ويمضون في حياتهم العادية كعصبة، وكأن شيئا لم يكن. وهذا ما يفسر عدم معرفة الاخوة ليوسف عند اللقاء به بعد طول عهد.

ولكن لماذا أتى الاخوة إلى مصر، إلى يوسف، المسؤول عن خزائن البلاد بالذات؟ هل كان لذلك علاقة بتدهور الأحوال الاقتصادية بالمنطقة المجاورة لمصر في ذلك الوقت:

قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي احدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس. ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وامسك عنده بنيامين أخ يوسف لأمه وابيه وارسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف، وكانوا عشرة....(٣)

وانطلاقا من حاجتهم للطعام، كال لهم يوسف كيلهم، مزودا إياهم بما يحتاجون إليه . وعن ابن عباس، قيل إنه أعطى لكل واحد منهم بعيرا من الطعام، محسنا ضيافتهم في الوقت نفسه(٤).

«ولما جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين» (٥٩، سورة «يوسف»)

إن اجتماعهم مع يوسف، بكل خلقه العظيم وحذاقته وبراعته في المعاملة، قد دفع بهم للاستئناس بجلسته. وبذلك تطرقوا إلى مواضيع خاصة عن العائلة، عدد افرادها.. عدد من أتى منهم إلى مصر، وعدد من بقي منهم في البيت.. يعقوب وابنه الصغير، أي أخوهم من أبيهم، الذي يبقيه إلى جانبه خوفا عليه. وبمعلوماتهم تلك، فقد أفسحوا له المجال كي يطلب منهم إحضار هذا الأخ الصغير، لهدف عظيم يُكشف عنه السياق في الأحداث القادمة. ولنيل المراد، فقد خاطبهم يوسف بأسلوب يتراوح بين اللين «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين»، وبيّن الشدّة كما يتمثل بالآية الكريمة:

«فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» (٦٠، سورة «يوسف»)

إن قول يوسف هذا، يحمل معه تخويفا لهم بحيث ينذرهم باستحالة بيعهم طعاما في حال عدم تلبيتهم لطلبه، بل وأكثر من ذلك، فهو ينذرهم ايضا، بعدم قبولهم بالبلاد في مثل هذه الحالة. وتعقيبا على ذلك، ورد ما يلي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

.... هذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم....(٤)

فماذا كان جوابهم إزاء موقف يوسف هذا؟

«قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون» (٦١، سورة «يوسف»)

أي سنبذل كل جهد لدينا للحصول على موافقة أبينا لإحضاره، وإنا لنضمن مجيئنا به إليك دون أي توانٍ. وبالوصول إلى هذا الحد، قال يوسف لفتيانه، أي غلمانه وأتباعه:

«وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون» (٦٢، سورة «يوسف»)

أي أن يوسف وجّه لأتباعه طلبا بوضع ثمن الطعام الذي دفعه أخوته له، في أوعيتهم لعلّهم يرجعون إليه، كما أخبرهم، بأخيهم الصغير.

وعند هذه النقطة، نذكر أن تصرف يوسف مع اخوته منذ لقائه بهم حتى ساعة رحيلهم، يحمل معه حنكة وخبرة فائقة. فمنذ البداية، أخفى يوسف شخصيته بالرغم من معرفته لهم، مزودا إياهم بكل ما يحتاجونه من الطعام، ومحسنا ضيافتهم، مما أفسح له المجال، للاستحواذ على قلوبهم. ومن هذا المنطلق، فقد استدرجهم للحديث إليه عن العائلة، الوالد يعقوب والأخ الصغير الموجود معه كما ذكر سابقا. وهكذا، جاء طلبه بإحضار أخيه الصغير في مساق طبيعي غير مثير للشكوك. ولكن بما أن يوسف كان يقدِّر، بحكم التجربة والعلم والنظر، امكانية رفض والده لطلبهم، وخصوصا بعد اختفائه، فكان لا بد له من الضغط عليه تارة باللطف، وتارة اخرى بالتخويف من فقدان الطعام.. الأمر الذي دفعهم إلى إعطاء تأكيدات له بتلبيتهم طلبه، من خلال العمل الجاد، والجهد الكبير. ولكن رغم ذلك، فيبدو أن يوسف قد رأى أن أسلوبه هذا لا يكفل الضمان الكامل لإحضارهم أخاه بالرغم من تأكيداتهم تلك. ومن هنا، لجأ إلى اسلوب آخر إضافة إلى الأسلوب السابق، تمثل في إرجاع ما دفعوه ثمناً لطعامهم سراً، من خلال وضعه بأمتعتهم.

والآن، هل سارت الأمور في صالح طلب يوسف بعد عودة الاخوة إلى أبيهم؟ هذا ما سيكشف عنه السياق في المرحلة التالية:

المشهد الثالث

«فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون. قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل فالله خير حافظ وهو أرحم الراحمين» (٦٣، ٦٤، سورة «يوسف»)

عند رجوع الاخوة العشرة إلى يعقوب، شرعوا رأسا بإخبار أبيهم عن الحقيقة بقولهم (منع منا الكيل)، والتعبير هذا يحمل معنيين:

احدهما أنهم لما اخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم، المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه واراد بالكيل الطعام لأنه يكال والقول الثاني إنه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» وقال الحسن يمنع منا الكيل ان لم نحمل معنا اخانا وهو قوله تعالى اخبارا عنهم «فارسل معنا اخانا» يعني بنيامين (نكتل)... نحن جميعا واياه معنا «وانا له لحافظون»... نرده إليك....[٥]

إن طلب الاخوة هذا من أبيهم اثار الذكريات والشجون في نفسه.. فكأن اليوم التقى بالأمس.. بالأمس طلب اخوة يوسف منه إرسال يوسف معهم إلى الصحراء للرتع واللعب، ولم يعودوا به، بل عادوا بأثر منه.. عادوا بقميصه الملطخ بالدم الكذب بحجة أن ذئباً أكله.. واليوم يطلبون منه إرسال اخ يوسف الصغير معهم، مع تعهدهم بالحفاظ عليه. إن عدم وفائهم بالتزامهم الحفاظ على يوسف منذ سنين

خلت، دفع يعقوب لتوجيه السؤال الآتي لهم: اذا لم تلتزموا بالضمان برد يوسف سالما، فكيف يمكنكم أن تحافظوا على اخيه؟ وبالوصول إلى هذه النقطة، أخبرهم بأن حفظ الله لابنه خير من حفظهم له، فهو ارحم به منهم. على أن ذلك يبين أن يعقوب فَقَدَ الثقة بأبنائه العشرة منذ الحادث المؤسف ليوسف، وتوسل إلى الله تعالى لكي ينعم عليه بحفظه خوفا من تجمع مصيبتين لديه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الجزء من القصة يعالج قضية الأثر الناتج عن عدم التزام بالعهود من جانب من يدّعون الحفظ للمواثيق، كما ان عدم التزام الاخوة بتعهداتهم ليعقوب بالحفاظ على يوسف هزّ ثقة أبيهم بهم كممثلين لعصبيته. وبذلك، فقد أصبح من المتوقع أن ينظر - لأيّ طلب مماثل لطلب اسبق نكثوا به - بحذر وارتياب، إلى أن يتحقق من صدقه بالدليل.. ازاء هذا الموقف، الذي لا يعلم كنهه، إلا الله تعالى، فقد التجأ يعقوب إلى السماء لإدخال الطمأنينة إلى قلبه. ويبدو أن هذه الطمأنينة قد بدأت، نوعاً مّا، بالدخول إلى قلب يعقوب مع الأحداث القادمة المتمثلة في ظهور دليل على صدق قولهم:

«ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير» (٦٥، سورة «يوسف»).

عندما فتح الاخوة امتعتهم وجدوا فيها ثمن الطعام الذي كانوا قد دفعوه ليوسف عند ذهابهم إليه، مما يعني أنهم حصلوا على دليل مادي لإثبات صدق كلامهم فيما يختص بما كانوا قد ذكروه لوالدهم عن ضيافة عزيز مصر (أي يوسف) لهم، ولطفه معهم. وبذلك، سارعوا لإخبار والدهم عن عدم تجاوزهم الحق في اقوالهم تلك، فهذه دراهمهم قد ردت إليهم، مما يثبت كرم صاحب الخزائن نحوهم. وبهذا حثوا يعقوب على الاستجابة لطلبهم بإرسال اخيهم الصغير معهم، لكي يجلبوا لأهلهم «ميرة»، أي الطعام من بلد آخر، مع تعهد ثانٍ منهم بالحفاظ على هذا الأخ، الذي يزيدهم وجوده معهم حمل بعير من الطعام. وعند هذا الحد، قالوا

لوالدهم إن طلبهم هذا يسير، هين، وسهل التنفيذ. فماذا كان موقف يعقوب من كلامهم؟ هل استجاب لطلبهم؟ ام لا؟ واذا استجاب فهل وضع شروطا لذلك؟:

> «قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني مَوْثِقاً من الله لتأتُنّني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل» (٦٦، سورة «يوسف»).

لقد اشترط يعقوب ارسال ابنه بإيتاء موثق من الله تعالى، من قبل اخوته. والموثق في اللغة هو «العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه»(٦).

اما عبارة «لتأتُنّني به الا أن يحاط بكم» فقد ورد تفسيرها كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

> .... حتى تحلفوا بالله لتأتنّني به... الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندي... وقال قتادة إلا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع(٧).

فلما اعطوا يعقوب عهودهم من الله تعالى على ردّ اخيهم إليه، قال يعقوب «الله شاهد على ما نقول»، فكأن «الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد»(٨). وبذلك أرسل بنيامين مع اخوته.

الدروس والعبر والاعجاز في المعنى

إن هذا الفصل بمشاهده الثلاثة يحمل معه افكارا ازلية بصدد موضوع «الضعف والقوة» والدور الإلهي في تحويل الضعف إلى قوة عظيمة، والقوة المبنية على أساس الغرور بالجماعة الإنسانية إلى ضعف. عندما رمى اخوة يوسف بأخيهم في البئر، فقد فعلوا ذلك تحت تأثير الشعور بالحسد منه من جهة، واعتداد بالقوة العددية من جهة اخرى، ولم يحسبوا أي حساب لإمكانية حدوث انقلاب بالموازين في وقت ما. فكل همّهم كان منصباً، وقتئذ، على إبعاد هذا الفرد، الضعيف لصغر سنه، عن بيتهم للاستئثار بالمكانة لدى أبيهم ولتطلعات رئاسية، ظناً منهم أن

وجود يوسف يحول بينهم وبين تحقيقها. ولكن مجرى الأحداث، اثبت أن ما حذروا منه وقع، ولكن في مكان آخر عرف بتفوقه الحضاري في ذلك الوقت، هو مصر. فقد حصل يوسف على مركز قيادي مرموق في زمانه.. مركز اقتصادي يكفل إطعام الناس بميزان وعدل، في وقت كارثة زراعية... ليس لأهل مصر فحسب، بل حتى لسكان المناطق المجاورة. من هنا، كان لا بد لاخوته من الاتيان إلى مصر كغيرهم من أجل الحصول على طعام في وقت المجاعة.. وكان لا بد لهم، ايضا، من الاجتماع بأخيهم دون معرفتهم له، والإنصات إلى حديثه، والعمل على تنفيذ طلباته بجد واجتهاد مهما كلف الثمن، خوفا من الخسران المعيشي. وتتجلى قوة يوسف، وتمكنه في السلطة، اثناء مخاطبته لهم؛ بأسلوب شديد اللهجة، عندما طلب منهم اخاه الصغير «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون». هنا يظهر السياق أن من كان مستضعفا بالأمس لدرجة رميه في قاع الجب، أصبح اليوم قويا في حين أن الذين استضعفوه أصبحوا في أمسِّ الحاجة إليه، ولكن دون علمهم بالسرِّ. والعبرة هنا هي أن العصبة التي تستضعف إنسانا من منطلق مفهوم القوة العددية، لا بدَّ وأن تصاب، في النهاية، بالخسران. فالتعددية البشرية لا تعني شيئا، وتتقهقر، كلياً، امام قوة الواحد الأحد. «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون». وعليه، فعلى كل عصبة بشرية أن تفكر بهذه الحقيقة الأزلية، قبل الإقدام على تدبير أي مكيدة ضد أي شخص متعقل حكيم ومؤمن. وبتأييد من الله تعالى، سيحظى هذا الشخص المظلوم بالنصر، فتعدل بذلك الموازين، ويتم إقرار العدل، وتدخل الطمأنينة إلى القلوب المقهورة.

الاعجاز في الاسلوب

هذا من حيث الأفكار الأزلية التي تشير إلى الإعجاز القرآني من حيث المضمون. اما فيما يتعلق بالإعجاز في الاسلوب، فهذا الفصل تميز بوجود مفاجآت مثيرة، وغير عارضة، لكنها بتدبير من السماء. فمثلا، ومع أن تولي يوسف، بالذات، لمنصب خزائن البلاد امر عجيب، لأن المؤشرات تضافرت كلها لصالحه بهذا الصدد، فقد كان قدوم اخوته العشرة من أرض كنعان إلى مصر للحصول على الطعام منه،

مفاجأة قوية للقارئ. ومن جانب آخر، فإن مقابلة يوسف السمحة الكريمة لهم، بما بسط فيها من سلطة، ولكن دون تعريف بنفسه، تحمل مفاجأة اخرى تنبئ بأحداث مثيرة. على أن ذلك يعني أن تلك المفاجآت حملت معها للقارئ عنصري الإثارة والتشويق من أجل معرفة ما هو آت من احداث، بعد موافقة يعقوب على ذهاب ابنه الصغير مع اخوته إلى مصر للمرة الثانية. فماذا حصل بعدئذ؟ هذا ما سيكون موضوع بحث في الفصل القادم.

الهوامش

١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٢٢ .

٢ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٢٤ .

٣ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٢٧ .

٤ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٢٧ .

٥ ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

٦ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٣٠ .

٧ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٣٠ .

٨ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٣١ .

الفصل السابع

التدبير الإلهي ليوسف: الإلهام

المشهد الأول

بعد موافقة يعقوب على إرسال ابنه الصغير مع اخوته، مفوّضاً امره إلى الله تعالى، شرع إلى تقديم نصيحة قيّمة لأولاده الأحد عشر، تتمثل كالآتي:

«وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء ان الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون» (٦٧، سورة «يوسف»).

إن نصيحة يعقوب لأبنائه بعدم دخولهم على شكل مجموعة إلى مصر يرمي إلى سلامتهم. لأن مصر كانت تعاني من مجاعة اولا، وكالعادة الجارية في كل مكان، فمن المتوقع أن سكان البلاد كانوا يرون انهم الأوْلى في الحصول على الطعام قبل غيرهم من سكان البلاد المجاورة. ثانياً، بما أن المصريين لم يكونوا على وفاق مع الاسرائيليين كما ورد في بعض كتب التفاسير، فدخول الاخوة كمجموعة، مع ما عرف عن تكريم يوسف لهم مسبقا، كان لا بدّ وأن يثير حسدا ضدهم، فتنتج عن ذلك عواقب وخيمة. وبهذا، فالنصيحة لم تكن صادرة عن يعقوب من منطلق خوفه عليهم من الإصابة بالعين المجردة، كما ظن بعض المفسرين الذين ادخلت بعض الاسرائيليات في كتبهم، لأن هذا القول يتناقض مع الحقيقة القرآنية، بل انبثقت من خوفه عليهم من الحسد الناتج عن العمل النابع من المَحبة للاستئثار بالأشياء.

وطالما أن مسألة العين المجردة الحاسدة أتت إلى الصورة هنا، فيجب أن نبين الموقف القرآني منها. إذ ان نسبة الشرّ للعين المجردة يعني، بالواقع، نسبة شرّ لإنسان بحكم التكوين أو طبيعة الخلق، ولكن الله تعالى يقول:

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» (٤، سورة «التين»)

ويجب أن نضيف أيضا، أن نسبة شرّ لإنسان مّا، من منطلق نظرة مجردة بحكم تكوينه، تؤدي، دون شك، إلى نفي الشرّ عن أعمال الإنسان، من ثم، تضع اعباءه على السماء. وقد تعالى الله بجلاله عن كل ذلك، فهو بكماله مصدر الخير التام والرحمة الواسعة والعدل المطلق. ويقول تعالى في كتابه العزيز:

«ذلك بما قدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد» (١٨٢، سورة «آل عمران»).

«فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم» (٦٢، سورة «النساء»).

وعليه، فيمكن تفسير مسألة الحسد بالعين، بالاطار الروحي، كالآتي: النظرة بنيَّة سيئة، وحب للاستئثار بالأشياء، والخوف عليها، تؤدي إلى التفكير السلبي الذي يؤذي الآخرين عند خروجه إلى حيّز التنفيذ، مما يبين أن الشرّ الناتج عن الحسد مرتبط بالعمل(١). على أن كل ذلك يؤكد، بدوره، بأن حرص يعقوب على دخول كل ابنائه، من باب واحد، كان يكمن في تخوفّه من ارتكاب عمل ضدهم، في وقت علم به البعض في مصر عن اهتمام يوسف بهم.ولكن مع تخوف يعقوب من حدوث خطر مّا على ابنائه، من ثم العمل على مفاداته بالنصيحة، فقد بيّن لهم أنه لو أراد الله تعالى بهم سوءاً فهو مصيبهم سواء أكانوا مجتمعين أم كانوا متفرقين «وما أغني عنكم من الله من شيء»، فالحكم لله تعالى وحده لا شريك له. وعند هذه النقطة، أخبرهم بأنه فوّض أمره كله إلى الله تعالى، وليس إلى غيره «إن الحكم إلا لله عليه توكّلت». وكنبي يقتدى به، كما هو الحال مع كل الأنبياء، فقد أضاف «وعليه فليتوكل المتوكلون». إن نصيحة يعقوب، المبينة أعلاه، لأبنائه، مع ما ذكر لهم في سياقها عن المشيئة الإلهية، تحمل للبشرية المعاني التالية: إن على كل أب أن يأخذ الاحتياطات كافة، لحماية أبنائه من نزول الكوارث بهم عند وجود مؤشرات في هذا الصدد، ومع ذلك، فهذا لا يضمن لهم الأمان، ولا مفر ولا فكاك من حكم الله القدري الذي ينفذ دون إرادة الناس. بناء على ذلك، ما على الإنسان إلا أن يفوض كل أموره إلى الله تعالى وحده.

المشهد الثاني

ولكن بالعودة ثانية إلى سياق الأحداث، تبرز القصة الأخوة، وقد دخلوا من أبواب متفرقة من المدينة، بموجب نصيحة يعقوب اشفاقا منه عليهم، وحرصا منه على سلامتهم، مع تصديق من الله، عزّ وجل، على كل ما ورد عن يعقوب من حديث لأبنائه. فالسياق يبين أن أقوال يعقوب كانت كلها صادرة عن علم، كما يبيّن، في الوقت ذاته، أن أكثر الناس لا يعلمون بأنه كان يعمل نتيجة علم يتلقاه من الله عزّ وجل:

> «ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وأنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون« (٦٨، سورة «يوسف»).

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه الآية تشير إلى عدم اقتناع غالبية الناس بوجوب الإذعان لله تعالى وحده، والإيمان بقضائه الذي لا مردّ له، والتوكل عليه في كل أمر لتدعيمهم بالتوفيق. أو بكلمة اخرى، فالآية تبيّن بأن غالبية أبناء البشر يسيرون في طريق الضلال والجهل لعدم اقتناعهم بالدين، علما، بأن هذا المبدأ الهام ورد مرارا في القصص القرآنية، التي تحذر من مغبة ذلك.

بيد أنه، بالعودة إلى مجريات الأحداث بعد دخول الاخوة إلى المدينة، يظهر السياق هؤلاء، وقد وصلوا إلى يوسف مع اخيهم الصغير الذي كان قد طلبه منهم سابقا، من ثم يركز على لقاء منفرد بين الأخوين:

> «ولما دخلوا على يوسف آوى إليه اخاه قال اني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون» (٦٩، سورة «يوسف»).

لقد ضم يوسف اخاه، وعرّفه، بنفسه، وقال:

(لا) تحزن بشيء فعلوه (أي الاخوة) بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا....(٢)

من الملاحظ أن القصة قد مرت مرورا سريعا على مشهد اللقاء بين يوسف وأخيه بعد طول فراق، رغم ذلك، «فالإيجاز» في النص يحمل في طياته معانٍ انسانية عظيمة، ويترك الباقي للعقل والتفكير. وتعبير «فلا تبتئس بما كانوا يعملون» يوحي للقارئ بأن الأخ الأصغر كان قد عانى الكثير من اخوته من أبيه، بحيث خيّم عليه نوع من الحزن والبؤس من جراء أفعالهم نحوه. ولكن بما أن حياة الإنسان لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة، بحيث يبقى الحزن حزنا، فقد كان لقاؤه بيوسف يبشر بتغيير في حياته، ويبعث على إحلال الطمأنينة في قلبه، ولكن مع تقبل لمزيد من الصبر، حتى تنكشف الأمور بجلاء، ويعاد العدل إلى نصابه. ولإنجاز ذلك، تمضي القصة الآن لتتحدث كالآتي:

> «فلما جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه ثم أذن مؤذن ايتها العير إنكم لسارقون» (٧٠، سورة «يوسف»).

بما أن اخوة يوسف اتوا للحصول على مزيد من الطعام، مع اخيهم، كشرط لذلك، فقد كان متوقعا أن يكيل الكيل ويوفيه لهم. وهذا ما فعله أولا، ومن هنا، انتقل إلى عمل آخر، في قالب حيلة ترمي إلى إبراز صعوبة المعاناة النفسية، عندما يجابه الإنسان بمتاعب تفرض عليه. وذلك حتى يدرك الاخوة خطورة ما فعلوه به، في يوم مّا، ومع اخيه أيضا. لأن الإنسان عندما يقع في مأزق بسيط ويعاني منه، يدرك، بالنتيجة، حقائق الأشياء التي فعلها، فيندم على فعلها، ويسعى إلى طلب الغفران وينحو منحى جديدا في حياته. اما بالنسبة لتلك الحيلة، فهي تتمثل كالآتي:

> (من) وراء ستار يدس يوسف كأس الملك - وهي عادة من الذهب - وقيل؛ إنها كانت تستخدم للشراب، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الاخرى في كيل القمح، لندرته وعزته في تلك المجاعة، يدسها في الرحل المخصص لأخيه، تنفيذا لتدبير خاص ألهمه الله إياه....(٣)

وبعد ذلك ينادي مناد بصوت عال، في صيغة الإعلان، والاخوة منصرفون، يا أهل القافلة إنكم لسارقون. وهنا، يذهل اخوة يوسف، فيعودون للاستيضاح عما حدث، كالتالي:

«قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم» (٧١، ٧٢، سورة «يوسف»).

اذن، عرف الاخوة من المؤذن واصحابه أن صواع الملك هو الشيء المفقود، كما عرفوا من المؤذن نفسه بأن مكافأة خصصت لمن يحضره تطوعاً وهي الحصول على حمل بعير من الطعام بكفالته. وعند هذه النقطة من الأحداث غير المتوقعة بالنسبة للاخوة، تقدموا للقول:

«قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين» (٧٣، سورة «يوسف»).

أي لم نأت إلى مصر لأجل الفساد المتمثل بالسرقة وإنزال الضرر بالناس. واستشهدوا على امانتهم تلك بعدم استحلالهم للبضاعة التي وجدوها في رحالهم مسبقا، والتي ردوها بناء على ذلك، والذي يتميز بصفة كهذه لا يمكن ان يكون سارقا. ومن هنا أكدوا براءتهم بالدليل والبرهان. ولكن رغم ذلك كله، قال المسؤولون: لو ثبت عدم صدق ما تقولونه الآن بصدد براءتكم، فما الجزاء عندئذ؟

«قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين» (٧٤، سورة «يوسف»).

وبصدد هذه الآية الكريمة، يقول سيد قطب:

وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله ليوسف. فقد كان المتبع في دين يعقوب: أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا في مقابل ما يسرق. ولما كان اخوة

يوسف موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق. ذلك ليتم تدبير الله ليوسف واخيه[٤].

وبذلك فقد تقدموا بقول ما يلي:

«قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين» (٧٥، سورة «يوسف»).

أي أن جزاء الذي يعثر على صواع الملك في رحله الأخذ والاسترقاق. ويكون الحكم، عندئذ، إلزاميا عليه، بموجب سنّة يعقوب. وبهذا القول لأبناء يعقوب، بدأت عملية تفتيش أوعيتهم:

«فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم» (٧٦، سورة «يوسف»).

اذن، لقد بدأ يوسف نفسه بالتفتيش اولا بأوعية اخوته قبل تفتيشه لوعاء اخيه. بيد أنه عندما وصل إلى وعاء الأخ الأصغر، اخرج الصواع من رحله. وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه بالرغم من أن القصة تحدثت عن عملية التفتيش تلك، إلا أنها لم تتحدث رأسا عن مسألة رد فعل الاخوة العشرة عند العثور على الصواع في رحل اخيهم... بل انتقلت لما هو اهم، في هذه المرحلة، ألا وهو موضوع الإتعاظ «كذلك كدنا ليوسف»، أي كما يقول سيد قطب،:

أي كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق «ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك».. فلو حكم شريعة الملك لما تمكن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقته، دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم اخوته

لدينهم هم. وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف اسبابه. وهو كيد الله له. والكيد يطلق على التدبير في الخفاء...(٥)

هذا، وبعد تركيز السياق على تدبير الله تعالى، وَردَ تعبير «نرفع درجات من نشاء» أي أن الله تعالى قد رفع درجة يوسف على اخوته بالعلم والإلهام. والله تعالى هو مصدر العلم:

قال ابن عباس فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فالله فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم(٦).

هذا، وبعد تقرير هذه الحقائق عن العلم الإلهي، عادت الصورة، مرة اخرى، إلى مسرح الأحداث.. إلى نقطة ما جرى بعد استخراج الصواع من رحل الأخ الأصغر ليوسف، فكشفت النقاب الآن عن رد فعل الاخوة، الذي تمثل كالآتي:

«قالوا إن يسرق فقد سرق اخ له من قبل فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرّ مكانا والله أعلم بما تصفون» (٧٧، سورة «يوسف»).

لقد قال اخوة يوسف هنا، إن ما فعله اخوهم من أبيهم ليس بأمر غريب منه.. فحتى اخوه الذي هلك (أي يوسف) كان سارقا. وهدفهم هنا تبرئة انفسهم من السير في الطريق أو النهج الذي ألصقوه بيوسف وأخيه، على أساس الاختلاف في الأم. اذن، وحتى هذه اللحظة، كشف الاخوة عن حقد، كان ما يزال ساريا في أنفسهم نحوالأخوين، بالرغم مما فعلوه بيوسف، وبالرغم من مرور الزمن. ولكن كيف كان رد فعل يوسف تجاه اتهامهم له بالسرقة(٧). لقد استطرد قائلا، إن الله أعلم بما يقولون عن أمر يوسف، وذلك بغية وضع حد للأشياء. ونتيجة لهذا فقد:

.... عادوا إلى الموقف الحرج الذي وقعوا فيه. عادوا إلى الموثق الذي اخذه عليهم أبوهم: «لتأتنّني به إلا أن يحاط

بكم».. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحدا منهم ان لم يكن مطلقه لخاطر أبيه، ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبرّه لعلّه يلين(٨).

وهذا ما يفسر قولهم:

«قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين» (٧٨، سورة «يوسف»).

ولكن ماذا كان جواب يوسف تجاه مطلبهم لأخذ واحد منهم بدل اخيهم؟

«قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنّا اذا لظالمون» (٧٩، سورة «يوسف»).

قال أعوذ بالله معاذا،.. من اخذ بريء بجريمة غيره فالله تعالى يأذن بأخذ من وجد الصاع في رحله، وما دون ذلك ظلم نأباه. وبهذا أغلق الأبواب أمامهم بصدد طلب الاستبدال، فانسحبوا للتفكير بحل آخر للموقف، حتى لا يقفوا موقفا حرجاً أمام والدهم لدى عودتهم إليه، وخصوصا، بعدما أعطوه مواثيق ملزمة للحفاظ على اخيهم.

الدروس والعبر والاعجاز القرآني

إن هذا الفصل مليء كغيره بالدروس والعبر التي تتناول مناحٍ هامة، من أبرزها مسألة الكيد الإلهي، مفهومه، إحكامه، تنفيذه على مراحل، واثره الساحق في تعديل الموازين. وهو على عكس الكيد البشري المبني على الشرّ في معظم الأحيان، فالكيد الإلهي مبني على العدل التام الذي يهدف إلى محق الشرّ، وإحلال الخير مكانه. ومن هنا، فبينما يتسبب الأول - الكيد البشري الشرير - في إلحاق الأذى والضرر بالأبرياء، يأتي الكيد الإلهي، لإزالة هذا الضرر، وبعث الطمأنينة في نفوس المتضررين. على أن الكيد الإلهي الموجه لسحق كيد بشري معين، قد لا ينفذ مرة

واحدة، لأنه يسير وفق خطوات تامة في الإحكام والدقة. فالكيد، هنا، يبدأ من قاعدة ثابتة قوية تكبر وتكبر، حتى ساعة النضوج النهائي، التي تحمل رياح الفرج للمظلومين الصابرين في ثناياها، وهذا ما يفسر طول الزمن في محق كيد اخوة يوسف. ولا بأس أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنبيّن المراحل التي حملت في ثناياها مفهوم الكيد الإلهي بالقصة لإعادة حقوق يوسف له. إن أول مرحلة تمثلت بإنزال بُشرى النجاة في قلب يوسف اثناء رميه في البئر، وتحققت بإخراجه من اليم من قبل السيارة، اما الثانية، فتمثلت في شراء العزيز له وإكرامه، والثالثة في التغلب على سجن النفس وسجن الجدران بالعلم والتأييد الإلهي، والرابعة في تولّيه لخزائن البلاد. على أن هذه المراحل كلها كانت تأسيسية وتمهيدية لمراحل تنفيذية قادمة اشترك فيها كل الأطراف، كما أن آخر مرحلة تأسيسية، وهي مرحلة علو شأن يوسف في الأرض، قد شكلت نقطة الإنطلاق لتجمع كل المعنيين بالأمر.

إن أول خطوة بعد المراحل التأسيسية بدأت باللقاء بين يوسف صاحب السلطة، المسؤول عن التموين.. والاخوة اصحاب الحاجة للطعام كغيرهم في زمن القحط. فها يوسف يعرفهم ويكتم الأمر عنهم لأن مشواره الآتي طويل معهم، وهم لا يعرفونه.. فلا يتحرجون من التحدث إليه بأمور خاصة عن العائلة، تمهد له السبيل للتقدم بخطوة اخرى في سعيه لوضع الأمور في نصابها الصحيح.. خطوة تهدف إلى إحراجهم أمام والدهم، واستعادة ذكراه (أي يوسف) من خلال التقدم بطلب أخيه الصغير...

في الماضي، طلب الاخوة يوسف من أبيهم لرميه في قاع الجب، بحجة ترفيهه، واليوم يطلبون منه، بأمر من العزيز (يوسف)، إرسال اخيه الأصغر معهم. ما أشبه اليوم بالأمس، ولكن مع الفارق في التناقضات بالأشياء. بالأمس أوقعوا أنفسهم في موقف غير صادق من أجل الحصول على موافقة الأب لأخذ يوسف معهم، اما اليوم فهم في موقف إلزامي لتنفيذ إرادة يوسف بأخذ أخيهم.. والأب يستعصي الاستجابة لهم لفقدانه الثقة بنواياهم بحكم التجربة السابقة. وبهذا، عانوا من «تأزم» نفسي انتهى، اخيراً، باستجابة والدهم لمطلبهم، ولكن بعدما اخذ عهود ومواثيق

دافعة، لا تراجع فيها، بإعادة اخيهم معهم. فأخذوه باستبشار وهم لا يعرفون ما تخبئه الأيام، من مفاجآت قادمة لهم.. مفاجآت عملت على اعادة التأزم في حياتهم لدورة اخرى.

إن أول مفاجأة لاحت في الأجواء، بعد وضع يوسف صواع الملك في رحل اخيه كحيلة، تمثلت في أمر موجّه لهم بالعودة من قبل المؤذن بعد تجهيزهم بالطعام، عندما اعلن «أيتها العير إنكم لسارقون». لقد كان الموقف حرجاً جدا بالنسبة لهم، ومذهلاً ودافعاً للاستفسار عما سرق بأسلوب مليء بالدهشة والعجب.. دهشة ازدادت عندما علموا بأن ما فُقِد هو صواع الملك.. شيء ثمين جدا، لدرجة أن جائزة بكفالة خصصت لمن يجده. إذن، فهم الآن في موقع اتهام مع السلطات، وعليهم أن يسرعوا لتبرئة أنفسهم بالدليل، والدليل موجود، وهو إعادة ثمن البضاعة - التي وجدوها وقد ردت إلى متاعهم - ليوسف ثانية. ولكن، مع المحاولة لتبرئة أنفسهم من خلال تأكيد أمانتهم، لم يجدوا أُذنا صاغية من المسؤولين، بل وجدوا من يتحدث معهم عن العقاب في حال العثور على الصواع في متاع واحد منهم، والعقاب هنا يسري بمقتضى سنّة يعقوب.

ما بين شعور بالألم والحرج لما يحدث، وعلم أكيد بالبراءة، وأمل للتخلص السريع من الورطة، بدأت عملية التفتيش في أمتعتهم. ولكن أملهم بالتخلص السريع تبدد، بسبب استخراج الصواع من رحل الأخ الأصغر. وليس عجبا أن يكون حرجهم قد تأجج هنا، وبتأججه هذا، عادوا إلى حقدهم القديم، ليس على الأخ الأصغر وحده، بل على يوسف أيضا، عندما اتهموه بالسرقة. فالزمن اذن لم يغيّر ما في أنفسهم نحو الأخوين، علما، بأن الحيلة في اخراج الصواع كانت بمثابة محك لمعرفة تلك الحقيقة. ولاشك أن تصرفهم هذا حمل معه آلاما ليوسف، كان طبيعيا أن يكتمها حتى تستكمل الخطة، وعندها يزداد حرجهم لِما افتروه على الأخوين.

المهم في الأمر، أن الأخوة وقعوا في مأزق بعد استخراج الصواع من رحل أخيهم، اذ كيف يعودون الآن إلى أبيهم دونه، بعد أخذ ابوهم العهود والمواثيق عليهم؟ بالأمس عادوا من دون يوسف ولكن برضا الكل منهم على أساس تخطيطهم

للأمر.. أما الآن فالأمر خارج عن أيديهم، ولذلك كان لا بد لهم من حل. والوسيلة لذلك، كانت تكمن في طلبهم باستبدال الأخ الأصغر بواحد منهم، حتى لا يقفوا موقفا حرجاً أمام أبيهم. ولكن منالهم هذا، لم يحظ بموافقة يوسف، فكان عليهم المضي في مواصلة سعي حثيث للتوصل إلى حل. ومن هنا، لبثوا لوقت وهم يعانون من الألم النفسي.

من الملاحظ أعلاه، أنه في كل خطوة من خطوات الكيد السماوي الموجه نحو القضاء على الكيد البشري، يطوّق المعنيين بالأمر «بالإحراج»، وهذه ظاهرة لها معناها ولها أثرها. فمعناها أنه اذ فُقِد الشعور بالإنسانية عند التخطيط والتنفيذ لمكيدة من قبل العصبة (القذف بيوسف في قاع البئر)؛ فإنه يستوجب عندئذ أن تمر الجماعة المعنية بالأمر بتجارب من الإحراج، وذلك بقصد اخذ الدروس والعبر.

وعدا عن موضوع الكيد الإلهي، فالفصل يتحدث عن موضوع المعرفة، فيفرق بين الوحي والإلهام، ويبين أن التخطيط الإلهي للمكيدة، وصل ليوسف عن طريق «الإلهام». وفي الوقت ذاته، يضع حدا فاصلا بين المعرفة الإلهية والمعرفة الإنسانية. فالوحي أول نوع من المعرفة، من الله تعالى، في حين أن الإلهام هو ثاني نوع من المعرفة السماوية.

ومن ناحية ثالثة، فالفصل حمل في طياته مبادئ أزلية بصدد موضوع «القضاء والقدر». ومع وجود «حرية» انسانية للعمل، يحاسب بموجبها الفرد، هنالك امور «يجبر» الإنسان عليها بحكم المشيئة الإلهية، مما يبين أن دين الله تعالى، الإسلام، يقع بين الجبرية وحرية الاختيار.

بالنسبة للاسلوب، فالفصل مليء بالمفاجآت المثيرة، بعضها يتعلق بالاخوة كما بينا أعلاه، بعضها يتعلق بيوسف. فالسياق يوحي بأن يوسف أصيب بدهشة عندما سمع اخوته وهم يتهمونه بالسرقة، رغم كل ما فعلوه به، ولكنه تمكن من اخفاء الأمر في سريرته «فأسرَّها يوسف» لحين إتمام الخطة. وإن كل المفاجآت المذكورة سابقا، تكاتفت بكل اتجاهاتها، لإثارة الفكر الإنساني، وأخذ الدروس والعبر. وتجدر

الإشارة هنا، إلى أن تلك المفاجآت اصطحبت «بحركية» مذهلة تمثل بعضها بالسفر، وبعضها بالاسراع بوضع الصواع في رحل اخ يوسف من أبيه، وبعضها بالصوت والإعلان (المؤذن)، وبعضها بالتفتيش عن الصواع، وهكذا.. على أن كل تلك الحركية تكشف عن الوقع الشديد الذي يحدثه الكيد الإلهي بالنفوس. وبناء على ذلك، توجّه نحو ضرورة الامتناع عن نصب المكائد للأبرياء. وبهذه الحركية التي تحمل معانٍ ازلية في ثناياها، يتحد الاسلوب والمعنى القرآني في توجيه الإنسان نحو الخير في كل وقت. هذا المزيد من المعلومات عن الكيد الإلهي لإرساء قواعد الحق والعدل، سوف يشكل موضوعا للبحث في الفصل المقبل.

الهوامش

١ ـ راجع مقالا للمؤلفة بعنوان الإعتقاد بالعين الحاسدة.. خرافة تتناقض مع الحقيقة القرآنية والمعايير العقلانية والفضائل الأخلاقية.. وتؤدي لا محالة للانحدار الحضاري»، **الدستور** (٣١ تموز، ١٩٩٢)، ص. ١١.

٢ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٣٤ .

٣ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ٢٠١٩. لاستقاء معلومات اكثر عن نوعية صواع الملك وصفاته، راجع كتاب السيوطي، **المصدر السابق**، ص ص. ٢٦ ـ ٢٧.

٤ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ٢٠١٩.

٥ ـ المصدر نفسه، ص. ٢٠٢٠.

٦ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٣٨.

٧ ـ لقد ورد تفسير التعبير القرآني «انتم شر مكانا» كالتالي في «الجلالين»: «انتم شر مكانا» من يوسف واخيه لسرقتكم اخاكم من أبيكم وظلمكم له.

جلال الدين محمد بن أحمد المحلى والسيوطي، **تفسير الإمامين الجلالين** (مصر: شركة الشموط للطبع والنشر، ١٩٧٧)، ص. ٢٠١.

٨ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ٢٠٢٢.

الفصل الثامن

تعريف يوسف بنفسه: الصفح عن الماضي

المشهد الاول

لقد ذكر في الفصل السابق، أن اخوة يوسف فشلوا في محاولتهم إقناعه بأن يستبدل بواحد منهم أخيهم الصغير؛ وعليه، اعتزلوا المجلس، وخلا بعضهم إلى بعض، دون اخيهم هذا، للتشاور:

«فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا
أن اباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم
في يوسف فلن ابرح الارض حتى يأذن لي أبي او يحكم
الله لي وهو خير الحاكمين» (٨٠، سورة «يوسف»)

اذن، بعد سنوات من اجتماعهم الأول بصدد التدبير للتخلص من يوسف.. وبعد تنفيذهم لمخطط رهيب، عادوا بعده لأبيهم من دون يوسف، وها هم يجتمعون بعد أمد بعيد لتدبير ما يلزم قبل ذهابهم إلى والدهم من دون اخ يوسف.. اجتماعان متناقضان من حيث المعنى، أحدهما تمّ باختيارهم والآخر دون ارادتهم. ومما يلفت الانتباه في كلا الاجتماعين، أن الأخ الأكبر سنا أو حكمة لعب دورا هاما.. ففي الأول، اقنع الاخوة بالعزوف عن فكرة قتل يوسف، واستبدالها بفكرة رميه في البئر على أساس افساح المجال له بالحياة.. وفي الثاني ركز على نقطة اخذ يعقوب ميثاقاً منهم، حين حلفوا بالله على حفظ اخيهم الصغير وردِّه له، رابطا بين عهدهم هذا، وعهدهم الذي حنثوا به بصدد يوسف من قبل؛ مقررا عدم مفارقة ارض مصر حتى يتلقى إذنا من أبيه في الانصراف إليه، او يحكم الله تعالى له بالخروج منها. لأن حكم الله تعالى قائم على الحق والعدل. والقصد من موقفه هذا، «الالتجاء إلى الله تعالى في اقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام.»[1]. هذا، وما أن جرى اعلام الأخ الأكبر عن موقفه الذي قرر الالتزام به، حتى انبرى في خطوة تالية لإعلام اخوته بما يجب قوله أمام والدهم عند عودتهم:

«ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون» (٨١، ٨٢، سورة «يوسف»)

وبحكم ما رأوه من استخراج الصواع من وعاء اخيهم الأصغر، أمرهم الأخ الأكبر بالقول ليعقوب «إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا»، ثم الاستطراد بالقول وما كنا للغيب حافظين» أي: «ما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقا من الله في رده إليك»[٢]. وانطلاقا من إلقاء تبعة عدم عودة يوسف، على الاخوة من قِبَلِ يعقوب سابقا، فقد أبلغهم بضرورة إخبار والدهم للاستفسار عن الأمر بواسطة وسائل اخرى وهي: الاستفسار أولا، من أهل القرية حيث كانوا بمصر، ثم الاستفسار من أهل العير التي كانوا فيها، وهؤلاء كانوا «قوما معروفين من جيران يعقوب من كنعان»[٣]. ومن هذه النقطة، امرهم أخوهم بالقول «وإنّا لصادقون»، وقد شرحها الرازي كالتالي في «التفسير الكبير»:

يعني سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فنحن صادقون. وليس غرضهم أن يثبتوا صدق انفسهم بأنفسهم لأن هذا يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه، بل الإنسان اذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده وانا صادق في ذلك، يعني فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة[٤].

المشهد الثاني

ومن مصر، انتقل السياق ثانية إلى بيت يعقوب حيث كان اولاده التسعة يخبرونه بما جرى الاتفاق عليه، والأب يجيبهم كالآتي:

«قال بل سوّلت لكم أنفسكم امرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم» (٨٣، سورة «يوسف»)

إن رد فعل ابيهم لما قالوه الآن مشابه لرد فعله بالأمس، حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب. فالعبارة القرآنية «قال بل سوّلت لكم أنفسكم امرا فصبر جميل» تذكر للمرة الثانية في القصة. أي أن نفوسكم زينت لكم امراً «أردتموه فقررتموه وإلا فما ادرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته»(٥). وطالما أن رد فعل يعقوب كان كذلك، فقد أردف قائلا «فصبر جميل» عبارة تشير إلى تذرعه بالصبر كطريق للفرج.. فالأمل بالله تعالى موجود دائما، وكلما يشتد الخطب ويعظم البلاء، تقرب ساعة الفرج بالنسبة للإنسان. ولإحساس يعقوب بفرج قريب قادم من السماء قال «عسى الله أن يأتيني بهم جميعا، إنه هو العليم الحكيم». والله جل ثناؤه، عليم بمعاناته من الحزن الشديد على فراق اولاده الثلاثة، حكيم فيما يدبره لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

وبين تأرجح بين الحزن والأمل، واذ بالسياق ينتقل الآن لكي يركز على يعقوب وقد اعرض عن ابنائه لما صادف منهم. والظاهر أن الأحداث السابقة المختصة بفعل ابنائه بيوسف، قد هيمنت فجأة على خاطره. فعندما يجابه انسان صابر مكلوم أحزاناً جديدة، يزداد ضناه، وتهيج ذكرياته، فيعود إلى أول باعث على الحزن لوقعه الشديد في النفس، واثره في احزان مقبلة:

«وتولّى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» (٨٤، سورة «يوسف»)

إن هذه الآية الكريمة تبرز مدى حزن يعقوب مما جرى له. على أنه بالنسبة لشرحها، فقد ورد ما يلي في «التفسير العظيم» للرازي:

إنه (أي يعقوب) لما قال يا أسفي على يوسف غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله «وابيضت عيناه من الحزن» كناية عن غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول

العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنا... (والوجه الثاني) أن المراد هو العمى قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله «فألقوه على وجه أبي يأتي بصيرا»....(٦)

وبصدد قوله تعالى «فهو كظيم»، أضاف الرازي، رجوعا إلى ابن قتيبة، يجوز أن يكون التعبير بمعنى المكظوم أي المملوء من الحزن. وبهذا المنظار، يرى الرازي أن الآية «٨٤» المذكورة اعلاه تشير إلى اشتراك أشرف ثلاثة أعضاء في وصف حزن يعقوب: «فاللسان كان مشغولا بقوله «يا أسفي» والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد....»(٧)

وتجدر الإشارة، إلى أن هذه الصورة، عن حزن يعقوب، تشكل احد عناصر الإعجاز القرآني معنى وأسلوبا. فعندما تتوالى المصائب على الإنسان، يشعر الشخص المصاب أنه بحاجة إلى البكاء للتعبير عن الوجد الذي يملأ القلب من خلال ذرف الدموع من جهة؛ وبحاجة إلى التعبير عن هذا الأسى بلسانه من جهة اخرى. وبتلك التعبيرات المصطحبة بالالتجاء إلى الله تعالى، يعيش الإنسان المصاب بين حزن على الواقع المرير، ورجاء بنصرة السماء له للتغلب على هذا الواقع. ومن ثم، الانتصار لقدوم ساعة الفرج.

هذا هو إحساس يعقوب المرير بمحنته التي ابتدأت قواعدها مع ضياع يوسف، والتي عبّر عنها بقوله «يا أسفي على يوسف».. ولكن السؤال الذي يراود الفكر الآن هو: كيف كان رد فعل اولاده وهم يستمعون إليه وهو في حالة من الحسرة الشديدة على يوسف؟

«قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين» (٨٥، سورة «يوسف»)

ان كلمة «حرضا» تعني بالنسبة لابن عباس وابن اسحق. «دنفا فاسد العقل»، اما مجاهد فيقول إنها تعني القرب من الموت في حين أن قتادة والضحاك رأيا أنها

تعني «هرما باليا». اما كلمة الهالكين فتعني «الميتين»[٨]. على أنه فيما يتعلق بتفسير الآية الكريمة ككل، يقول الرازي:

ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه، او تموت من الغم كأنهم قالوا: انت الآن في بلاء شديد ونخاف أن يحصل ما هو ازيد منه واقوى، وارادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف[٩].

وهنا يكشف السياق عن يعقوب وهو يقول:

«قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون» (٨٦، سورة «يوسف»)

إن هذه الآية الكريمة تحمل في طياتها ردا على ما ورد ذكره على لسان أبناء يعقوب. فهي تبين أن يعقوب كان يتوجه بشكوى إلى الله تعالى من خلال اتصاله المستمر به كنبي، مع العلم بأن هذا الاتصال يشكل السبيل الصحيح للتخفيف من وطأة الهموم والأحزان. ويأتي هذا التخفيف من خلال ما يفيض به الله تعالى عليه من علم ومعرفة بصدد ما يجري من حوله[١٠]. والعبرة من هذه الآية وما ورد قبلها، هي أن يتذكر الإنسان بأن عليه التوجه دوما إلى السماء للتخفيف عنه في وقت الشدة، ولو لم يفعل ذلك، لوصلت به الأحزان إلى حد الإضرار به صحيًا بشكل أو بآخر. صحيح أن يعقوب عانى من أثر البكاء على عينيه، إلا أنه فيما عدا ذلك، فقد كان سليما. فالمعرفة الخفية التي كان يتلقاها من السماء شكلت العامل الأساسي في هذا الصدد. كما ذكر سابقا، وتتجلى هنا كالآتي:

«يا بَنيَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (٨٧، سورة «يوسف»)

إن هذه الآية تشير إلى علم الأب بوجود يوسف في مكان ما، على الرغم من ادعاء اخوته السابق بأن ذئباً أكله. فكلمة «تحسسوا» تعني الدعوة إلى الاستقصاء عن بعض اخبار يوسف واخيه. هذا وبما أن اولاده كانوا يعانون من ضيق بسبب مجريات الأحداث الأخيرة، فقد حثهم يعقوب على عدم القنوط من رحمة الله تعالى التي يحي بها العباد، وان لا ييأسوا من فضله. وهنا أردف قائلا: «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، تعبير ورد شرحه عند الرازي كالآتي:

> واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا اذا اعتقد الانسان أن الإله غير قادر على الكمال او غير عالم بجميع المعلومات او ليس بكريم، بل هو بخيل. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يوجب الكفر....(١١)

اذن، فقول يعقوب لأبنائه يشير إلى أن اليأس من الرحمة الإلهية مرتبط بالكفر، في حين أن الاستبشار والأمل بالخلاص مرتبط بالإيمان، اذ أن الإيمان ينزع الحزن من قلب الانسان، ويدفع به إلى العمل المدعم من السماء.. وبهذه النصائح، فقد عاد الاخوة للمرة الثالثة إلى مصر وقد عزموا على العمل، بصدد موضوع التحسس هذا.

المشهد الثالث

طبعا، لتحقيق الهدف، فالعزيز (يوسف) كان أفضل انسان لذلك بحكم مركزه وصلاته الوثيقة بين سكان مصر وما جاورها من بلدان. وبما أن المتحسسين عادة «يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرفق القلب»(١٢)، اقدم الاخوة لمخاطبة العزيز كالآتي:

> «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مُزجاة فأوفِ لنا الكيل وتصدَّق علينا إن الله يجزي المتصدقين» (٨٨، سورة «يوسف»).

لقد قال الاخوة للعزيز (يوسف) إنهم اتوا هذه المرة ببضاعة مزجاة أي بضاعة

رديئة او قليلة، يردها أو يدفعها كل تاجر رغبة منه. ومن هنا طلبوا التساهل معهم «إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد او يقيم الرديء مقام الجيد». ثم أردفوا قائلين «وتصدق علينا». والقصد هنا، طلب «المسامحة ما بين الثمنين وأن يسعّر لهم بالرديء كما يسعّر بالجيد»[١٣]. وما أن تصل الأحداث إلى هذا الحد، حتى يفاجئنا السياق بيوسف وهو يرد عليهم قائلا:

> «قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون» (٨٩، سورة «يوسف»).

من الواضح أن قلب يوسف قد رق لدى سماعه حديث اخوته عن حالهم، فلم يعد قادرا على كتمان شخصيته عنهم أكثر من ذلك، ولكن قبل أن يعرفهم بنفسه، كان لا بد له من «معاتبتهم» على ما فعلوه بحقه وحق اخيه. ومن هنا، عظّم الواقعة بقوله «هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه» أي هل تدركون مدى بشاعة ما فعلتموه بيوسف واخيه؟ وما يقصده هنا الرمي به بالبئر، وحرمان اخيه من اخ عطوف عليه، والاستفراد به، ومن ثم إذلاله وإهانته. وهنا، بيّن لهم أن اعمالهم تلك، في وقت مضى من حياتهم، كانت نتيجة القصور في التفكير بعواقب الأشياء. ويقال إن الأخوة ادركوا هنا أن المتكلم هو يوسف، وبذلك، خاطبوه بصيغة الاستفهام التقريري:

> «قالوا أءنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنه من يتقِ ويصبر فإن الله لا يُضِيع أجر المحسنين» (٩٠، سورة «يوسف»).

لقد كرر يوسف هنا مسألة ظلمهم له وأن انتشاله مع اخيه من هذا الظلم كان بعون من السماء. فقول العزيز «أنا يوسف» وليس «أنا هو» جاء من منطلق التعظيم لما حلّ به «من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك»[١٤]. على أن قوله «وهذا أخي» يرمي إلى تأكيد نفس المقولة، وهي قهره منهم، ثم نصرة الله تعالى له «قد مَنَّ الله علينا». والعبرة من تقرير هذه الحقائق هي إظهار دور التقوى والصبر على الملمات في نيل الجزاء الحسن بالنتيجة. وبهذا أبرز يوسف أمامهم تهاوي الكيد

البشري أمام الكيد الإلهي، الذي ارتفع من خلاله، الذين اتقوا وصبروا إلى أعلى الدرجات. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كلامه هذا يحمل معه صورة تطبيقية تفرق بين حالة الكائدين ((الاخوة))، قديماً، والمكاد لهما، بعد الظفر... فها هو يوسف يقف بكل ما يحيط به من أبهة السلطة المبنية على علمه وعدله، محتضنا اخاه على جانبه، وبالمقابل يقف الاخوة في حالة من التأمل، وحساب النفس، وهم يقولون:

> «قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين».
> (٩١، ٩٢، سورة «يوسف»).

فيما يتعلق بشرح الآية «٩١» يقول الرازي:

> والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن اخوته ما كانوا انبياء، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا «تالله لقد آثرك الله علينا» وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائداً عليهم في الملك واحوال الدنيا وان شاركوه في النبوة لأنا بيّنا أن احوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة(١٥)

على أنه فيما يتعلق بتعبير «وإن كنا لخاطئين»، فهو اعتراف من جانبهم بخطأ ما ارتكبوه بحق يوسف. ومع اعترافهم هذا، ركز السياق القرآني على تسامح يوسف نحوهم حين قال «لا تثريب عليكم»، أي لقد «انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب»(١٦). ومن هنا، «بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر ذنبهم»(١٧)، فالله جل ثناؤه ارحم الراحمين. وبتأكيد هذه الحقائق، وجه يوسف الطلب التالي، المختص بأبيه هذه المرة، إلى اخوته:

«اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيرا وأتوني بأهلكم اجمعين»(٩٣، سورة «يوسف»).

بصدد هذه الآية الكريمة، ورد ما يلي في «التفسير العظيم»:

قال المحققون: إنما عرف (يوسف) أن إلقاء ذلك القميص على وجهه (يعقوب) يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك، لأن العقل لا يدل عليه. ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق الصدر ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح، ويزيل الضعف عن القوى، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى(١٨).

وبذلك يسدل الستار على هذا القسم من الأحداث المثيرة.. يسدل ببشرى استرجاع قوة النظر ليعقوب بعد ضعف بموجب التفسير المبين أعلاه، أو بشرى استعادة النظر الكلي بعد فقدانه، بموجب تفسيرات اخرى ذكرت سابقاً.

الاعجاز في الاسلوب والعبر

يتميز هذا الفصل بتزويد القارئ او السامع بعدة صور واقعية ذات أثر بليغ في النفس الإنسانية، عن عائلة توترت فيها العلاقات، وتزاحمت على أفرادها المشاكل، من جراء فعل قديم سيء، اشترك فيه الأكثرية ضد الأقلية. اخوة عشرة ضد أخوين من أبيهما، اضاعوا احدهما، واحتقروا الآخر، وتركوا الاب وهو يتأرجح بين حزن شديد لما حصل، وانتظاره ليوم فرج قادم بمشيئة الله عز وجل.. إن هذا الفصل يعطي صورة مؤثرة للغاية عن أثر تراكم الملمات على يعقوب، فيبرز انفعالاته الداخلية. المصطحبة بالبكاء الشديد، وهو يتذكر يوسف بعدما علم ما حل بأخوته..

فكما أنه نبي مرسل، فهو إنسان، يتألم، ولكن لا يقنط من رحمة الله تعالى، بل يعيش على أمل نيل المراد من خلال معرفته السماوية.

من جانب آخر، فهنالك صورة الأبناء التسعة وهم يستمعون إلى تأوهات أبيهم على يوسف، ويرون دموعه، وابيضاض عينيه فيعتريهم نوع من القلق والتخوف من تدهور كبير في صحته يؤدي إلى هلاكه. ومن الطبيعي أن يصاب الأبناء عادة بالاضطراب عند وجود ما يدعو للأحزان لدى آبائهم، ولكن كيف يكون نوع الاضطراب والأبناء (اخوة يوسف بالذات) يعرفون أنهم السبب الكامن وراء أحزانه؟ هنا يوحي السياق القصصي للقارئ بأن أبناء يعقوب كانوا في ذلك الوقت بحالة سيئة جدا.. مشاكل المجاعة.. مشاكلهم مع العزيز.. ثم مشكلتهم مع حزن أبيهم وفقدان ثقته بهم. ومع الوضع الجديد هذا، أظهروا لينا من حيث التقبل لنصائح والدهم، وخصوصا فيما يتعلق بيوسف واخيه، فقبلوا طلبه بالتقصي عن بعض اخبار يوسف، مهما كلفهم ذلك من معاناة. ومن هنا، أعطوا صورة حقيقية عن حاجتهم أمام بوسف عندما اجتمعوا به في المرة الأخيرة، وقد وقعت المفاجآت القصصية ولكنها ليست المعتمدة على الخيال، بل المستمدة من الواقع البشري.. وهي تعريف يوسف بنفسه من خلال حديث مثير للاحراج لمن كادوا له، في وقت كان الحرج يحف بهم من كل جانب، ثم إقدام الاخوة على الاعتراف له بالمكانة، والاعتذار عما فعلوه به. وهنا اظهر السياق يوسف، وهو في ذروة التسامح، بل والسعي لإحلال الطمأنينة في نفوس اخوته ودفع الحرج عنهم وذلك حين قال لهم «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين».. في هذه الكلمات تكمن عبر ودروس لأبناء البشرية في كل زمان ومكان. وهي أنه في حال ارتكاب خطأ عن جهل بعواقبه، ثم الاعتراف بالخطأ، والسير في النهج الصحيح، فالغفران الإلهي موجود دائما. وبذلك كله، يبرز مدى التسامح في دين الله تعالى، الإسلام.

ويجب أن نذكر عند هذه النقطة، أن انتهاء هذا الفصل، بتعرف الاخوة على يوسف، وما صاحب ذلك من عتاب تبع بمسامحة، يشير إلى انفراج في التأزم الذي اخذ مكانا في أحداث متتالية، ابتدأت منذ مجيء الاخوة إلى مصر لحين تعريف

يوسف بنفسه. وقد أتى هذا الانفراج في اسلوب متميز بالإثارة الفكرية والإحساس الوجداني. فتسامح يوسف مع اخوته رغم معاناته من البئر، ومخاوف الاستعباد، ومخاطر كيد امرأة العزيز والنسوة، ومأساة النسيان له بالسجن لمدة طويلة، يحمل معه أجمل معنى للحياة.. معنى احلال المحبة بين افراد عائلة واحدة، بعد أن عصفت بها رياح الفرقة من عدة جوانب لتسرّب الحسد وسيطرته على العدد الأكبر من أفرادها، الذين نسوا معنى الاخوة، ومعنى الشعور الأبوي في وقت ما، فظلموا اخويهم، وادخلوا الحزن الشديد إلى قلب والدهم. ولكن كيف كان مسار الأحداث بالنسبة ليعقوب بعد أن امر يوسف اخوته بأخذ قميصه لإلقائه على وجهه؟ هذا ما سيكشف عنه السياق في الفصل القادم.

الهوامش

١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٤٢.

٢ ـ الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، جزء ١٧ (بيروت: دار التراث العربي، لا. ت.) ص. ١٩٠.

٣ ـ صديق حسن خان، فتح البَيان في مقاصد القرآن، جزء ٥ (القاهرة: مطبعة العاصمة، لا. ت.)، ٣٦.

٤ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ١٩١.

٥ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٤٣.

٦ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ١٩٥.

٧ ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٦.

٨ ـ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، جزء ١٣ (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦١)، ص. ١٠٧.

٩ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ١٩٧.

١٠ ـ بصدد التعبير القرآني الوارد في آية «٨٦» «واعلم من الله ما لا تعلمون»، ورد ما يلي:

اشارة إلى علم العقل برجوع القلب إلى عالم الخلق.

محي الدين بن عربي، **تفسيرالقرآن الكريم**، جزء ١ (بيروت: دار الاندلس، ١٩٧٨)، ص. ٦١٩.

١١ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ١٩٩.

١٢ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢٠١.

١٣ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢٠٢.

١٤ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٥٠ .

١٥ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص ص. ٢٠٤ـ٢٠٥.

١٦ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **فتح القدير**، جزء ٣ (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لا. ت.)، ص. ٥٢ .

١٧ـ الرازي، المصدر السابق، ص. ٢٠٦.

١٨ـ المصدر نفسه، ص. ٢٠٦.

الفصل التاسع

اللقاء بين يوسف وابويه: الاستقرار العائلي

المشهد الأول

بعد أن امر يوسف اخوته بأخذ قميصه لإلقائه على وجه أبيه، خرجت العير منطلقة من مصر أو عريش مصر إلى كنعان. في تلك الأرض، كان يعقوب وقتئذ يتحدث مع ولد ولده عن وصول رائحة من يوسف إليه من بعد:

> «ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفنّدون» (٩٤، سورة «يوسف»).

ولأنه نبيّ يتلقى معرفة «إلهامية»، إضافة إلى الوحي، فقد علم يعقوب بقدوم شيء ما من جانب يوسف إليه بالإلهام. ولكن بما أنه كان فاقدا أوشبه فاقد للبصر، لم ينكشف له الشيء في هيئة صورة، بل أدركه من خلال حاسة الشم «إني لأجد ريح يوسف». وبما أنه انفرد بهذه المعرفة دون سواه من ابناء ابنائه، بحكم منزلته الروحية، فقد ادرك تماما أن ما يقوله سوف لا ينال التصديق منهم: لأن مسألة العلم الخفي بعيدة عن اذهانهم، ولهذا السبب قال لهم:

> لولا أن تقولوا شيخ خرف: «لولا أن تفندون».. لصدقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد(١).

وفعلا كان ظن يعقوب في مكانه، فقد اتهمه أهله بالخروج عن الصواب بصدد ما قاله عن ريح يوسف، معلّلين هذا بإفراطه في حب ذلك الإبن. فكأن قوله هذا ، بالنسبة لهؤلاء الذين ظنوا أن ابنه قد هلك، كان من قبيل التمني والرجاء بلقاء يوسف:

> «قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم» (٩٥، سورة «يوسف»).

اذن، فبينما كان يعقوب يتحدث مع أهله عن مسألة يوسف من منطلق إلهامه

بقرب انقشاع الضباب من حياته، والذي تراكم بفقدانه ليوسف؛ ظن ابناء ابنائه أن تعلقه بالماضي، وانعكاس ذلك على حياته الحاضرة، قد هيأ له الاعتقاد بقدوم شيء من ناحية ابنه. وقد وقف يعقوب في جانب، في حين وقف الآخرون في جانب آخر، وذلك لعدم تصديقهم لما قاله بصدد يوسف «إني لأجد ريح يوسف»؛ علما بأن يعقوب كان متيقنا من وجود يوسف في مكان ما، من منطلق الرؤيا التي تلقى نبأها منه، وهو صغير. والآن، كيف سارت الأمور تجاه تلك المواقف من الجانبين؟ هل سارت بنهج يبرز صحة قول يعقوب بشمّه لشيء قادم من جانب يوسف، الذي كان متأكدا من وجوده؟ هذا ما تحمله الآية الكريمة التالية:

> «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون» (٩٦، سورة «يوسف»).

لقد أتت المفاجأة لصالح يعقوب، وتأكيد كلامه. فهذا المبشر بخبر من يوسف قد أتى، ومعه قميصه، الذي عندما ألقاه على وجه يعقوب:

> صيره الله بصيرا... واختلفوا (أي العلماء) فيه فقال بعضهم: إنه كان قد عمى بالكلية فالله تعالى جعله بصيرا في هذا الوقت. وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان، فلما القوا القميص على وجهه، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه. فعند هذا قال «ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون»(٢).

وما أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، حتى كشف السياق عن اخوة يوسف وهم يعتذرون ليعقوب، لما سببوه له وليوسف، عند وصولهم إليه من مصر:

> «قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين. قال

يوسف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم» (٩٧، ٩٨، سورة «يوسف»).

اذن، لقد اعترف الاخوة بالذنب بعد طلب من أبيهم بالاستغفار لهم، فوعدهم خيرا:

قال الزجاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر لأنه اخلق بإجابة الدعاء لا أنه بخل عليهم بالاستغفار... وقال ابن عباس: أخرهم إلى السحر، وكان يصلي بالسحر لأن دعاء السحر مستجاب... قيل أخره إلى ليلة الجمعة لأنها اشرف الأوقات... وجملة «إنه هو الغفور الرحيم» تعليل لما قبلها(٣).

وبعد ذلك، يمضي السياق لعرض الأحداث التي جرت في مصر في آخر مشهد من مشاهد تلك القصة المثيرة والمليئة بالمفاجآت.. مشهد اللقاء بين يعقوب ويوسف بعد طول فراق، ولوعة، واشتياق.

المشهد الثاني

يبتدئ هذا المشهد العاطفي بالآية الكريمة التالية:

«فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» (٩٩، سورة «يوسف»).

عندما دخل يعقوب إلى مصر، ويوسف يحتل منصب العزيز فيها، استقبل استقبالا حافلا مع باقي الأسرة كما يذكر المفسرون(٤). ويمكننا أن نتصور هنا أن ساعة اللقاء بين يوسف وأبويه كانت فريدة من نوعها من حيث انسياب العواطف والمشاعر الوجدانية.. فلطالما قاسى يعقوب من فراق ابنه لدرجة إصابته بفقدان أو شبه فقدان للبصر.. ولطالما عانى يوسف أيضاً من محن قبل أن يصل إلى ما وصل إليه.. وبهذا تلاقت مشاعر من الفرح المكتنف بآثار الآلام التي طالت لسنين، وتبلورت بضم يوسف لأبويه، وطمأنة جميع الأهل بقوله «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين». قد قيل:

إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد
إلا بجوارهم فقال لهم يوسف إدخلوا مصر آمنين على
أنفسكم وأهليكم إن شاء الله، فعلى هذا يكون قوله إن
شاء الله للتبرّك....(٥)

ومع لقاء يوسف الحار بأبويه، ومع طمأنته لأهله بالأمان في العيش، يظهره السياق في خطوة اخرى وهو يرفع ابويه ليجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه بحكم منصبه الكبير كعزيز مصر:

«ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا وقال يا أبتِ
هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقا وقد
أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو
من بعدِ أن نزع الشيطان بيني وبين اخوتي إن ربي
لطيف لِما يشاء إنه هو العليم الحكيم» (١٠٠، سورة
«يوسف»).

إن رفع يوسف لأبويه على سريره لأمر عظيم، ويحمل معه معانٍ أزلية بصدد احترام الأبناء للآباء، كمسؤولية دينية. ومع المرتبة التي وصل إليها كمسؤول أول عن خزائن البلاد، فقد احتل منصباً في غاية الأهمية بمصر، وخصوصا بسبب ظروف القحط السائدة وقتئذ. إن النقطة الهامة هنا، هي أن يوسف لم يكترث لأبهة السلطان التي نالها بعد صبر وجهد وطول معاناة... وعرف أن حق أبويه عليه يفوق أي شيء آخر، فرفعهما بيديه وأجلسهما على كرسيه واقفا بقربهما. وذلك ليظهر لهما أنه مهما علا، ومهما ساءت أحوالهما المادية بالمقابل، فهما أعلى منه بحكم أبوّتهم له. فلو ابقينا هذه المعلومات في ذهننا، وعدنا للتفكير بالأعداد الضخمة من الآباء الذين ينبذهم أبناؤهم، عند علوهم في الأرض، لأدركنا عظمة يوسف الحقيقية، وهو يضع نفسه بالمنزلة الصحيحة للأبناء تجاه آبائهم. ولكن، كيف كان رد فعل والديه على صنيعه هذا الذي حمل معه كل تقدير واحترام لهما؟ «وخرّوا له سجدا» وذلك:

تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراه
وقيل معناه خروا لأجله سجدا لله شكرا....(٦)

ولكن ما أن وصلت الأحداث إلى هذا المنعطف حتى التقى السياق بالماضي.. وبالضبط، عند نقطة رؤيا يوسف التي ابلغها لأبيه عندما كان صغيرا.. فالرؤى بهذا المنظار هي نقطة الملتقى بين ماض بعيد، وحاضر واقعي.. بدأت القصة بإبلاغ يوسف لأبيه عن رؤيا تنبئ له بمستقبل عظيم، يعترف له فيه اخوته وأبواه بالمكانة الرفيعة، وانتهت فعلا، بتحقيق تلك الرؤيا بمشيئة من الله عزّ وجل، مما يعطي طابعا مميزا لتلك القصة بأحداثها المكثفة، وازماتها، ومفاجآتها بكل ما حملته من تناقضات في طياتها.. مفاجآت محزنة.. ومفاجآت اخرى سارة، استقرت بها الأمور ليوسف. ولكن ما هي هذه المفاجآت السارة التي قدّم يوسف شكره لله تعالى عليها كما اظهرت آية «١٠٠». إن هذه تضم مفاجأتين، الاولى: خروجه من السجن، والثانية، اجتماعه مع الأهل. اما عن سبب إعطاء يوسف اهتماماً خاصاً لمسألة خروجه من السجن، فيعود إلى الأسباب الآتية: بما أن دخوله السجن كان بسبب اتهام امرأة العزيز له بمراودته لها، فإخراجه كان دليلا قاطعا لزوال التهمة عنه، خصوصا وأن الخروج كان نتيجة محاكمة، ثبتت له من خلالها البراءة، كما ذكرنا سابقا. لقد كان لخروجه من السجن معنى اخلاقيا هاما، وهو انتصار الفضيلة على الرذيلة، ومهما بلغ عدد أصحاب الرذائل ومكائدهم، فالله تعالى لا ينسى الفرد المغلوب على امره حين يتمسك بالفضيلة بكل قوته؛ بل يخرجه من محنته، حتى ولو نسيه كل من حوله. وبهذا، فخروج يوسف من السجن وقف كرمز لانتصار الحق على الباطل، والفضيلة على الرذيلة، والأمل على اليأس.

اما بالنسبة للأمر الثاني الذي شكل مفاجأة سارة ليوسف، فهو مجيء والديه واخوته وباقي اهله من البادية، حيث كانوا «بأرض كنعان أهل مواش وبرية»، إلى مصر للاستقرار معه(٧). إن هذا الحدث أمر هام جدا لأنه يظهر، بعون السماء، أشياء في غاية البعد عن الأذهان البشرية. وبعد أن لعب الشيطان دورا مدمرا في إثارة حسد اخوته عليه، وتأجيج نار بغضهم له، لدرجة رميه في قاع البئر، فقد

جمع الله تعالى، بلطفه، بينهم جميعا «إن ربي لطيف لما يشاء». هذا، وقد ورد شرح ذلك التعبير القرآني الوارد على لسان يوسف كالتالي:

> .... إن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه واخوته مع الإلفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول. ثم قال «إنه هو العليم الحكيم» أعني أن كونه لطيفا في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالما بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب. وحكيم أي محكم في فعله، حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله....(٨)

إن يوسف ـ بعد هذا التركيز على علم وحكمة الله تعالى ـ انتقل لتقديم مزيد من الشكر لله لِما أفاضه عليه من نعم عظيمة، فقال:

> «رب قد أتيتني من المُلك وعلَّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليٍّ في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين» (١٠١، سورة «يوسف»).

لقد شكر يوسف الله تعالى، للدور القيادي العظيم الذي منحه إياه في مصر، حين أوصله بلطفه ورحمته إلى توليه شؤون خزائن البلاد. وبوصوله لهذا المنصب، فقد انقذ أهل مصر وما حولها من الجوع والفقر بتدبير وتنظيم الشؤون الزراعية على اكمل وجه ممكن من خلال علمه السماوي، الذي تلقاه حين تأويله لرؤيا الملك. ومن هنا، تابع شكره لله تعالى قائلا «وعلّمتني من تأويل الاحاديث». إن علمه بتأويل الرؤى، وعلى الأخص رؤيا الملك هنا، قد دفع به للابقاء على رفعة مصر، وجعلها قبلة للإحسان والعدل المقترنين باسمه وقتئذ. ولكن ومع هذا العلو العظيم، فلم يشعر يوسف بالاستكبار ولا للحظة واحدة، لأنه يعلم حق العلم بأن الملك كله لله

تعالى «فاطر السماوات والارض». فهو يعمل في دنياه، متوكل في سعيه على الخالق عزّ وجل. ولكن بما انه يدرك ايضا أن لدوره الدنيوي حد معين بحكم كونه بشرا زائلا بالنتيجة: فقد توسل للخالق جل ثناؤه كي ينعم عليه بالرعاية في الآخرة «أنت ولي في الدنيا والآخرة». وعند هذه النقطة، دعا الله تعالى أن يتوفاه مخلصاً له بالعبادة والتوحيد، مع التوسل اليه كي يُلحقه بالصالحين. قال ابن عباس: «يعني بآبائه ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب».(٩)

الدورس والعبر

والجدير بالذكر هنا، أن شكر يوسف لله تعالى مع توسلاته له، كما هي مقدمة اعلاه، تحمل معها الدروس والعبر الآتية للانسانية: اولا، إن على كل حاكم مسؤول ان يدرك حدوده وإمكاناته كبشر، فلا يضع نفسه في مركز تأليه كما فعل فيما بعد فرعون مصر ايام موسى على سبيل المثال. ثانيا، أن على كل حاكم مسؤول أن يقوم بأعباء الحكم بالوجه المطلوب، مستمدا العون من السماء، لكي يحظى بالنجاح المطلوب. وفيما عدا ذلك، فالقصة بالاجمال تزود القارئ بالصفات التي يجب أن يتحلى بها كل مسؤول كبير في مجال الحكم في أي زمان ومكان وهي: التمسك بالفضيلة، قوة الارادة، التواضع، العدل، العلم الرحمة، الرأفة بالمظلومين، النخوة، الشهامة، الإيثار، التسامح، التضحية في سبيل الواجب، والوفاء. هذا إلى جانب الحنكة السياسية، والقدرة الفائقة في سبيل التنظيم الإداري، علما بأن كل هذه الفضائل تجمعت في يوسف حين تولى منصب خزائن البلاد. صحيح أن يوسف كان نبيا، لكن الأنبياء يشكلون مثلا أعلى للاتّباع، والاتّباع يكون بموجب قدرات كل انسان معني بالأمر وطاقاته.

وبهذه المبادئ عن الحكام ومسؤولياتهم، تنتهي قصة يوسف بكل مراحلها، ويعود السياق ثانية إلى الرسول محمد (صلعم)، الذي كان يتلقى الوحي، لإبلاغه بما يلي:

> «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» (١٠٢، سورة «يوسف»).

إن هذه الآية الكريمة تبيّن أن ما أخبر به محمد (صلعم) من أخبار يوسف، وحي من السماء، وعليه، فالآية تؤكد صحة نبوّة الرسول (صلعم). وذلك:

> لأنه كان رجلا أميّا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى بلد آخر غير بلده الذي نشأ فيه، صلى الله عليه وسلم، وإنه نشأ بين أمة أمية مثله، ثم إنه، صلى الله عليه وسلم، أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأوضح معانٍ وأفصح عبارة فعلم بذلك أن الذي أتى به هو وحي إلهي ونور قدسي سماوي، فهو معجزة له قائمة إلى آخر الدهر(١٠).

إذن، فإن قصة يوسف، كغيرها من القصص والمواضيع القرآنية، تحمل في ثناياها دلائل وبراهين كثيرة على اثبات صدق أو صحة الوحي من خلال التركيز على الإعجاز من حيث المعنى والاسلوب معا. وطالما أننا انتهينا من عرض وتحليل قصة يوسف، كما وردت في القرآن الكريم، يبقى علينا أن ننتقل الآن «لتعريف» القصة كما وردت في التوراة، ثم نتوجه بعد ذلك لإجراء «مقارنة» بصدد كل ما يختص بها في الكتابين المقدسين.

الهوامش

١ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ٢٠٢٨.

٢ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ٢٠٩.

٣ ـ خان، **المصدر السابق**، ص. ٤٨.

٤ ـ يذكر أن يوسف قد أرسل إلى والده يعقوب:

جهازا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء... فتلقوا يعقوب....

البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٥٤.

٥ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٥٥.

٦ ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

٧ ـ الرازي، **المصدر السابق**، ص. ٢١٥.

٨ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢١٦.

٩ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢٢١.

١٠ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٥٩.

الفصل العاشر

قصة يوسف في التوراة: تعريف ومقارنة

أ- التعريف بالقصة التوراتية:

تبتدئ القصة تلك، بالحديث عن يوسف وهو في السابعة عشرة من عمره، حيث كان يرعى الغنم، مع اخوته عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه، ويأتي بإخبار نميمتهم إلى أبيه، الذي كان يحبه اكثر من الباقين، لأنه ولد له في سن الشيخوخة، مما أثار بغض اخوته له.. بغض تأجج برؤية يوسف لحلمين، روى الأول منهما أمامهم حيث قال:

> .... اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت، فها نحن حازمون حزما في الحقل. واذا حزمتي قامت وانتصبت فاجتاحت حزمكم وسجدت لحزمتي. فقال له اخوته ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا.... ٧، ٨، ٩ الاصحاح السابع والثلاثون، التكوين.

اما الحلم الآخر، فهو مطابق لرؤياه الواردة في القرآن. ويذكر هنا أنه قصّ حلمه هذا، على أبيه واخوته، وكان رد الفعل كالآتي:

> .... فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وامك واخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده اخوته. واما أبوه فحفظ الأمر. ١١، ١٢ الاصحاح السابع والثلاثون، التكوين.

وفي يوم ما مضى اخوة يوسف لرعي مواشي والدهم من دونه، فطلب الأب منه الذهاب إليهم للاطمئنان عنهم. وفعلا ذهب، ولكن ما أن رأوه قادماً إليهم من بعيد، حتى تحدثوا بموضوع قتله وطرحه في احدى الآبار. ولكن اخاهم راوبين رفض فكرة القتل، وأوعز لهم بطرحه في البئر التي في البرية. وعليه، فما أن وصل يوسف حتى خلعوا قميصه عنه، وطرحوه في بئر فارغة من الماء. فانتشله رجال

مديانيون وباعوه للاسماعيليين. اما الأخوة فقد غمسوا قميص يوسف بدم تيس من المعزى كانوا قد ذبحوه، ثم اعطوه لأبيه عند وصولهم للبيت بالأسلوب الآتي:

> وقالوا وجدنا هذا. حقق أقميص ابنك هو أم لا. فتحققه وقال قميص ابني. وحش رديء اكله. افترس يوسف افتراسا. ٢٣، ٢٤ الاصحاح السابع والثلاثون، التكوين.

وعندها مزق يعقوب ثياب يوسف وناح كثيرا، ورفض التعزية له به من قبل جميع بنيه وبناته.

وبعد ذلك تدخل القصة في باب الحديث عن «يهوذا»، قصة زواجه، وزواج ابنيه ثم وفاتهما، ثم تخوض في أخبار عن انحراف لا اخلاقي له مع أرملة احد أبنائه (راجع الاصحاح الثامن والثلاثون).

ومن هنا، تعود القصة ليوسف، فتتحدث عن شرائه من قبل فوطيفار رئيس الشرطة في مصر من الاسماعيليين، مبيّنة إعجاب هذا الرئيس به وإكرامه له لدرجة توليته له كل شؤون بيته. فهو لم «يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذي يأكل». ٧ الاصحاح التاسع والثلاثون، التكوين. وفي حديث القصة عن علاقة فوطيفار بيوسف، كان من الطبيعي ان تنتقل للحديث عن موقف امرأته منه، فتركز على شغفها بيوسف لحسن صورته... شغف دفعها تطلب منه مضاجعتها، لكنه رفض وذلك على أساس حفظه لجميل زوجها. بيد أنه بالرغم من هذا، لم تكف تلك المرأة عن الطلب إلى أن انتهزت فرصة عدم وجود احد في البيت في يوم ما لتفعل ما يلي:

> فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا. قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه

ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج. ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ الاصحاح التاسع والثلاثون، التكوين.

وعند مجيء زوجها رددت له نفس تلك الحكاية المفتعلة، فغضب على يوسف ووضعه في السجن، حيث التقى هناك برئيس السقاة ورئيس الخبازين في قصر فرعون، اللذين وضعهما فرعون هناك لسخطه عليهما. ومع الأيام، حلم الاخيران بحلمين في ليلة واحدة، وأخبرا يوسف عن ذلك، فتكفل بتأويلهما لهما. هذا وبالنسبة لرئيس السقاة، فقد روى حلمه كالآتي:

كنت في حلمي واذا كرمة امامي وفي الكرمة ثلاثة قضبان. وهي اذ افرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنبا. وكانت كأس فرعون في يدي. فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون. ١٠، ١١، ١٢ الاصحاح الاربعون، التكوين.

والحلم هذا بتعبير يوسف، يعني إرجاع الساقي إلى وظيفته السابقة في القصر. على أنه بناء على ذلك، أوصاه بالتحدث عنه أمام فرعون لعلّه يبتّ في أمره، ويخرجه من السجن، وخصوصا أن إدخاله إلى ذلك المكان، تم وهو بريء.

اما حلم رئيس الخبازين فقد رواه أمام يوسف كالتالي:

.... قال ليوسف كنت أنا أيضا في حلمي واذا ثلاث سلال حوارى على رأسي. وفي السل الاعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز، والطيور تأكله من السل عن رأسي. ١٧، ١٨ الاصحاح الاربعون، التكوين.

بموجب تأويل يوسف، فإن هذا الحلم يعني تعليقه على خشبة من قبل فرعون، بحيث تأكل الطيور لحمه عنه. وفعلا صدق تأويل يوسف للحلمين، فصلب الخباز وعاد الساقي إلى عمله، ولكنه نسي وصية يوسف له بالكشف عن قضيته أمام فرعون. وبعد عامين من تلك الأحداث، واذ بفرعون نفسه يرى حلما عن التهام سبع

بقرات قبيحة المنظر، وهزيلة لسبع بقرات حسنة المنظر وسمينة، إضافة إلى ابتلاع سبع سنابل سمينة لسبع هزيلة... ولعظم هذا الحلم، فقد دعا جميع سحرة مصر وحكمائها لتفسيره ففشلوا. وهنا دخل رئيس السقاة في الصورة مخبرا فرعون عن علم يوسف بتأويل الاحلام، ومستشهدا بواقعه وما حصل لرئيس الخبازين. عندها استدعى فرعون يوسف، وعرض عليه حلمه، طالبا منه تأويله له، فقال له يوسف إنه يعني حدوث سبع سنوات قحط تابعة لسبع سنوات خصب في البلاد. وعليه، نصحه باختيار رجل بصير حكيم لكي يقوم باللازم من حيث التخزين لسني القحط القادمة. فاختاره فرعون عندها، ومنحه سلطات واسعة:

> وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف. وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه إركعوا. وجعله على كل أرض مصر. وقال فرعون ليوسف أنا فرعون. فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله في كل أرض مصر. ٤٣، ٤٤، ٤٥ الاصحاح الحادي والأربعون، التكوين.

وبعد ذلك، تظهر القصة أن فرعون غيّر اسم يوسف، وزوّجه حيث كان سنه ثلاثين عاما وقتئذ. وتذكر أنه ولد له ابنان فيما بعد. اما بالنسبة للمهام الكبيرة الملقاة على يوسف، فقد قام بها بكفاءة، مخزّنا القمح الفائض في سني الخصب لسني القحط. وعندما ابتدأت سني الجوع بالدخول إلى مصر، باع يوسف الطعام للمصريين، ثم بدأت تتوارد عليه أفواج من بلاد مجاورة للحصول على الطعام، وهنا تدخل عائلة يعقوب إلى الصورة، فقد أرسل يعقوب عشرة من اخوة يوسف لشراء القمح من مصر وأبقى بنيامين، أخ يوسف، خوفاً عليه من الإصابة بأذية. ولما وصلوا عند يوسف «سجدوا له بوجوههم إلى الأرض».٧ الاصحاح الثاني والاربعون، التكوين. فعرفهم في حين أنهم لم يعرفوه. وعندها، تذكر احلامه السابقة عنهم، فقال لهم إنهم جواسيس جاؤوا لرؤية عورة الأرض، ولكنهم أجابوه كالتالي:

فقالوا عبيدك اثنا عشر اخا. نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان. وهوذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود. فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلا جواسيس أنتم. وبهذا تمتحنون. وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء اخيكم الصغير إلى هنا. ١٤، ١٥، ١٦ الاصحاح الثاني والأربعون، التكوين.

ثم أبقى واحدا منهم عنده، وذهب الآخرون لتلبية رغبته إلى أرض كنعان، ولكن قبل ذهابهم، أمر ان تملأ أوعيتهم بالقمح وترد الفضة التي دفعها كل واحد منهم إلى عدله. فوجدها أحدهم قبل وصولهم لأبيهم فخاف الجميع من ذلك. ولكن عند وصولهم لأبيهم، وجد الباقون صرر الفضة في عدالهم.. حصل ذلك بعد اخبارهم لوالدهم عما جرى لهم في مصر مع الرجل، سيد الأرض الذي طلب احضار بنيامين له. اما يعقوب فقد رفض تلبية الطلب في البداية، لكنه وافق، فيما بعد، على إرساله من منطلق الحاجة للطعام من ناحية، وحصوله على ضمان من ابنه يهوذا بالحفاظ الشديد على بنيامين من ناحية اخرى:

أنا أضمنه من يدي تطلبه، إن لم أجئ به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنبا إليك كل الايام. ١٠ الاصحاح الثالث والأربعون، التكوين.

وقبل ذهابهم، أمر يعقوب ابناءه بأخذ هدية معهم للرجل صاحب الأرض، واخذ فضة اخرى في أيديهم، مع إعادة الفضة المردودة في عدالهم لأصحابها. فاستمعوا له، وذهبوا إلى مصر، ووقفوا امام يوسف، الذي عندما رأى بنيامين معهم، أشار للرجل الذي على بيته لإدخالهم البيت، مع ذبح ذبيحة. خاف الأخوة من ذلك وأخبروا هذا الرجل للتوّ عن أمر الفضة التي وجدوها في عدالهم، دون علمهم بمن وضعها، ثم أعادوها إليه. وعند مجيء يوسف إلى البيت قدموا له الهدية فسألهم عن سلامتهم وسلامة أبيه فأخبروه أنه حي، ثم خروا وسجدوا، وبعدها رفع يوسف عينيه:

.... ونظر بنيامين اخاه ابن أمه وقال هذا اخوكم الصغير

> الذي قلتم لي عنه. ثم قال الله ينعم عليك يا ابني. واستعجل يوسف لأن احشاءه حنت إلى اخيه وطلب مكانا ليبكي. فدخل المخدع وبكى هناك. ٣٠، ٣١ الاصحاح الثالث والاربعون، التكوين.

ثم خرج بعد أن تجلد، وأمر المسؤولين بتقديم الطعام:

> فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم. لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين. ٣٣ الاصحاح الثالث والاربعون، التكوين.

وما أن انتهى الجميع من الاكل حتى أمر يوسف الذي على بيته، أن يملأ لهم أوعيتهم بالطعام المطلوب، مع وضع فضة كل واحد منهم في عدله، اما طاسه، طاس الفضة، فأمر بوضعها في فم عدل بنيامين. فنفذ طلبه، وانصرف الأخوة. ولكن ما ان خرجوا لمسافة غير بعيدة، حتى وجه يوسف الأمر الآتي للذي على بيته:

> .... قم إسع وراء الرجال ومتى ادركتهم فقل لهم لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير. أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه. وهو يتفاءل به. أسأتم في ما صنعتم. ٥، ٦ الاصحاح الرابع والاربعون، التكوين.

وهنا، دهش الأخوة، مذكّرين بأنهم لا يمكن أن يسرقوا.. فهم حتى ردوا الفضة التي وجدوها في عدالهم، ولكن رغم ذلك، بدأ الرجل المسؤول، بعملية تفتيش لأمتعتهم، فوجد الطاس في عدل بنيامين. وعليه، اضطروا للعودة إلى المدينة، فاجتمعوا بيوسف حيث عاتبهم بدوره، ثم أخذ بنيامين عبدا له، وأمرهم بالعودة بسلام لأبيهم. ولكن تدخل يهوذا هنا لاستعطافه واسترحامه، وعرض نفسه لأخذه بدلا من بنيامين:

> فالآن ليمكث عبدك عوضا عن الغلام عبدا لسيدي

ويصعد الغلام مع اخوته. لأني كيف أصعد إلى أبي
والغلام ليس معي. لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي.
٣٤، الاصحاح الرابع والخامس والاربعون، التكوين.

وعند هذه النقطة، أظهرت القصة التوراتية يوسف وهو يعرِّف اخوته بنفسه في صوت عال مصطحب بالبكاء سمعه كل من حوله:

فقال أنا يوسف اخوكم الذي بعتموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا. لأنه لاستبقاء حياة ارسلني الله قدامكم. ٥، ٦، الاصحاح الخامس والاربعون، التكوين... وهوذا عيونكم ترى وعينا اخي بنيامين أن فمي هو الذي يكلمكم. وتخبرون أبي بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي هنا. ١٣، ١٤ الاصحاح الرابع والاربعون، التكوين.

وهكذا ذهب الاخوة إلى أرض كنعان، واخبروا يعقوب عن الأمر، فانتعشت روحه، وعادت قواه له، وفي الطريق كلمه الله تعالى:

فقال أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر. لأني أجعلك امة عظيمة هناك. أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضا. ويضع يوسف يده على عينيك. ٤، ٥ الاصحاح السادس والاربعون، التكوين.

وبالوصول إلى هذا الحد، خاضت القصة بتفصيلات عن أسماء بني إسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر، ثم تحدثت عن استقبال عاطفي كبير من قبل يوسف لأبيه، مظهرة ترحيبا من جانب فرعون لهم، حيث أعطاهم إذنا بالإقامة في تلك البلاد. ومن هنا، انتقلت القصة لإعطاء صورة أخيرة عن كيفية إدارة يوسف لشؤون مصر في وقت المجاعة، فبينت أنه جمع كل الفضة الموجودة في أرض مصر وأرض كنعان، ثم الماشية من خيل وغنم وبقر وحمير، ثم الأراضي باستثناء أراضي الكهنة، كثمن

لبيع الخبز لهم، وبذلك اكدت استعباده لهم، واظهرته وهو يتحدث إلى الشعب قائلا :

> .... إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون. هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض. ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمسا لفرعون. والاربعة أجزاء تكون لكم بذارا للحقل وطعاما لكم ولمن في بيوتكم وطعاما لأولادكم. فقالوا أحييتنا. ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون. فجعلها يوسف فرضا على أرض مصر إلى هذا اليوم لفرعون الخمس. إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون. ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ الاصحاح السابع والاربعون، التكوين.

وبعد ذلك، عاد السياق القصصي للتحدث عن أهل يوسف، فذكر أنهم تملكوا في أرض مصر أرض جاسان. وتكاثروا من حيث العدد. ومن هنا، انتقل السياق للتركيز على وصية يعقوب لابنه يوسف، التي يطلب فيها دفنه في مقبرة آبائه، لا في مصر، مبينا أن يوسف تعهد لإنجاز الوصية عن طريق القسم.

ب ـ مقارنة بين القصة القرآنية والقصة التوراتية:

لقد ابتدأت القصة التوراتية بالحديث عن حُلُمين ليوسف، روى الاول امام اخوته، والثاني امام اخوته وأبيه.. أمر أدى إلى تأجج نار البغض الموجودة في قلوب الاخوة تجاهه من ناحية، وإلى شبه امتعاض من جانب الأب لِما يحمله حلمه الثاني (سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا) من استعلائية بالرغم من صغر سنه من ناحية أخرى. بيد أن هذا الشعور الذي أوردته القصة التوراتية المختص بيعقوب نحو ابنه غير موجود في القصة القرآنية. وعلى العكس من ذلك، فالقصة تلك تكشف عن خوف من الأب على ابنه من اخوته، وهو يستمع للرؤيا من يوسف، لدرجة أنه طلب منه عدم روايتها لهم كوقاية له من مكائدهم. على أنه بموجب هذا الاختلاف بصدد الأحداث الجارية حول رد فعل يعقوب نحو رؤيا يوسف، فقد اتخذت الأحداث، فيما بعد، مسارا مختلفا بما يختص باسلوب التخلص من يوسف

في كلتا القصتين. وانطلاقا من مفهوم كشف النقاب عن حلميّ يوسف امام اخوته في التوراة، فقد أصبح أمر إيذائه شيئاً محتوما، مما يعني أن عنصر «المفاجأة» المتطلب لإثارة التأمل، غدا مفقوداً هنا. وهذا العنصر مرتبط، في معظم الأحيان، بالسرية والتكتم في الأمور، مما يفسر ذهول القارئ وهو يتابع أخبار تدبير «مكيدة» ليوسف من قبل الأخوة في القصة القرآنية، حتى دون استماعهم للرؤيا.. فيتساءل: كل هذا يحصل بمنأى عن الرؤيا، فكيف لو عرفوا بها حقا؟ وتجدر الإشارة هنا، إلى أن القصة القرآنية ارجعت الفضل في عدم إقدام الأخوة على قتل اخيهم لحكمة يعقوب الذي عمل كل ما في وسعه أيضاً لمنع فقدانه. بيد أنه على العكس من ذلك، فالقصة التوراتية وضعت ضمنيا اللوم على يعقوب في فقدان يوسف، اذ أنه هو الذي أرسله للاستقصاء له عن أخبار أبنائه، عندما كانوا يقومون برعي الماشية، بينما كان يوسف قابعاً في البيت.. إن ذهابه هذا هو الذي أدى إلى استفرادهم به «كصاحب للاحلام»، ومن ثم تنفيذ خاطر طارئ أجمع الاخوة عليه بقيادة احدهم، ويقضي برمي يوسف في قاع بئر فارغة من الماء. هذا، وبالرغم من اتفاق القصة القرآنية والتوراتية فيما بعد، بصدد اخذ قميص يوسف بدم كذب إلى والده لإخفاء معالم فعلة الاخوة المنكرة، الا أن التفسيرات لهذا العمل تختلف تماما في كل من الكتابين المقدسين. فالقصة التوراتية تكشف عن اخوة يوسف، وهم يحملون قميص اخيهم، ويقولون لوالدهم يعقوب «حقق أقميص ابنك هو أم لا فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله. افترس يوسف افتراسا». فالأمر يبدو هنا وكأنه أتى من قبيل المصادفة التي وقعت بسبب إرساله يوسف وحده إلى الصحراء، هنا تقع المسؤولية عليه. لكن بالنسبة للقصة القرآنية، فالأمر ليس كذلك، لأن القصة هنا ترمي في جوهرها لإبلاغ القارئ بأن ما حصل ليوسف كان ثمرة «للتخطيط»، «والتنفيذ» لمؤامرة بخطوات عديدة من قبل الأخوة، وبهذا فقد نفت القصة القرآنية مسؤولية ضياع يوسف عن يعقوب، إلا ما كان فوق طاقته كبشر، كما ذكر سابقا، وحفزت القارئ لانتظار ما سوف يأتي من السماء في وقت ما، لكشف الحقيقة. وبهذا فبينما قدمت الأحداث في إطار دنيوي محدود في القصة التوراتية، فقد قدمت في الاطار الأزلي في القصة القرآنية. فالأحداث هنا حملت من

ورائها افكارا أزلية عن التخطيط والتنفيذ للكيد، تهدف في جوهرها إلى تزويد الإنسان بالدروس والعبر اللازمة له في معاملاته، حتى يعيش بعالمه الواقعي بكل ما يكتنفه من خير أو شرّ، وليعرف كيف يكافح الشر لو وقع فريسة له.

ويجب أن نضيف هنا، إلى أن الطابع الدنيوي الذي ظهرت من خلاله الأحداث في القصة التوراتية، كقصة عادية، مقابل الطابع الأزلي الذي تتسم به القصة القرآنية، يَبرز أيضا في أحداث قادمة، تتصدرها حكاية امرأة العزيز مع يوسف. ومع أن كلتا القصتين تبدأ بالحكاية بعد تمهيد لما جرى ليوسف بعد رميه بقاع البئر، فتركزان على شرائه من شخص مصري، وتشيران إلى إكرامه له، إلا أن القصة القرآنية أعطت صورة أعمق عن هذا الإكرام، فتحدثت عن ميل منه لتبنيه. والدليل على ذلك أنه قال لزوجته «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا». على أن موقف الرجل المصري كان حثّ زوجته على اعتبار يوسف إبناً لهما، قد ينفعهما في كبرهما، وبهذا تحضر القصة القرآنية صورة الأبوة والأمومة ليوسف إلى ذهن القارئ. ولكن ما أن يسمع هذا القارئ، فيما بعد، عن هذه الزوجة، وهي تراود يوسف عن نفسها، وتغلق الأبواب، وتقول له هيت لك، حتى تتملك الدهشة كيانه.. فكيف يمكن أن يحصل مثل هذا الأمر في وقت أثار صاحب البيت فيه، كوامن الأمومة في زوجته؟ إن هذا ما يجعله يدرك أن امرأة هذا الرجل غير جديرة بثقته ولا حتى بثقة أحد، في حين أن الجدير بالثقة هو يوسف، الذي امتنع عن الاستجابة لطلبها خوفاً من الله تعالى، لمبدأ، وعقيدة ينبثق منها اعترافه بالجميل نحو سيد البيت الذي كان يعيش فيه بعد تشرد.

ولكن عندما تتحدث القصة التوراتية عن امرأة رئيس الشرطة، وهي تطلب، مرارا، من يوسف مضاجعتها، إلى أن انتهزت فرصة خلو القصر فأعدت له الأجواء للاستجابة لطلبها، لا يفاجأ القارئ كما كان الحال بالنسبة للقصة القرآنية لسببين: أولهما، أن أمر التبني، بما يخفيه من أفكار في طياته، غير موجود هنا. ثانيهما، انطلاقا من خوض قصة يوسف التوراتية في جزئها الثاني، في حكاية لا اخلاقية، وغير عادية، عن علاقة جنسية بين اخ يوسف، يهوذا، وأرملة ابنه - دون أن تبرز بالنهاية فظاعة الفاحشة وتحريمها في المفهوم الديني - يصبح طلب زوجة رئيس

الشرطة في مصر، أمراً طبيعياً، يتكرر حدوثه بأشكال مختلفة. وبذلك تكون القصة التوراتية قد أضاعت مفهوما دينيا أساسيا، وهو تحريم الفاحشة. ولكن بما أن هذا التحريم مُلزم في كل الرسالات السماوية، فلا شك أن إدخال حكاية يهوذا إلى قصة يوسف التوراتية، إضافة إلى بعض الزوايا عن امرأة العزيز، تتبع «التحريف» الذي ادخل على التوراة.

إن حديث القصة التوراتية عن امساك امرأة رئيس الشرطة في مصر بثوب يوسف عندما رفض مضاجعتها، مع ابقاء الثوب معها، كدليل لقلب حقيقة الأمور رأسا على عقب، أمام أهل القصر أولا، ثم أمام زوجها ثانيا، يأتي هنا أيضا كأمر عادي، لا كأمر مفاجئ. ففعلتها تلك لا تقف رادعاً لغيرها من النساء، بل على العكس من ذلك، فهي تمثل حافزا للبعض باحتذاء حذوها، وخصوصا أن الزج بيوسف في السجن قد أتى نتيجة ما افتعلته تلك المرأة، من أكاذيب نحوه. وبذلك، تبدو الأمور في القصة التوراتية وكأنها تسير وفق أهواء بعض أبناء البشر دون وجود من يحاسبهم على ذلك.

وهنا بالذات، يظهر اختلاف كبير بين القصة القرآنية والقصة التوراتية، فالقصة القرآنية تركز على العلم الإلهي عن الكيد البشري السيء، ومن ثم على القدرة الإلهية على إبطاله بكل مراحله، حتى لا يظن الإنسان أنه يقوى على ارتكاب المعاصي خفية ومن دون حساب. إن حديث القرآن عن قدوم صاحب البيت غير المتوقع، ويوسف هارب من زوجته، يشير إلى تدبير إلهي عن استحالة إخفاء أمر يأتي بالضرر لإنسان مؤمن، مهما اتخذ من تدابير، كإغلاق الأبواب مثلا، فكيف إذا كان ابن نبي كريم؟ إن التدبير الإلهي المتمثل في القدوم الفجائي لصاحب البيت إلى الباب، فتح الطريق لمعرفة الحقيقة، وتبرئة يوسف بالدليل والبرهان وبالمقابل ادانة الزوجة.

إن معرفة الحقيقة التي تحدثت عنها القصة القرآنية بعد استقصاء أدى إلى نشر أخبار امرأة العزيز في بعض الأوساط المصرية... أمر أثار غيظها، ودفع بها إلى تدبير مكيدة أخرى لبعض نسوة المدينة، تمكنت من خلالها اسكاتهن، بل واكثر من ذلك، من استخدامهن للضغط على يوسف للاستجابة إلى رغبتها ومضاجعتها.

على أن كل ذلك يبين أن القصة القرآنية قد زودت القارئ بصورة واضحة عن بعض سمات المجتمع السائد وقتئذ في مصر.. مجتمع إباحي، فقدت فيه المرأة - كما هي ممثلة بالطبقة العليا - عنصر ضبط النفس والتعفف. والدليل على ذلك أن نسوة المدينة أخذن بجمال يوسف، لدرجة نسيان أنفسهن، وتقطيعهن لأيديهن، وبما أن عدم التعفف في النظرة قد يصل بالمرأة إلى تلك الدرجة المحزنة. فالقصة القرآنية عن يوسف، توجه إذن، إلى ضرورة التعفف ابتداء من النظر، فالنظرة تتبع بميول اخرى قد تنتهي بالإقدام على فعل ما هو محرم بالشرائع الدينية.

وبهذا كله، نرى أن القصة القرآنية المتعلقة بالجانب المختص بامرأة العزيز، وما تلاه بصدد اخبار نسوة المدينة (غير الموجودة في التوراة) قد حملت في طياتها، الكثير من الأفكار الأزلية التي ترمي في جوهرها إلى تطهير المجتمعات الإنسانية من الفاحشة، بدءاً بإصلاح المرأة. اما عن نقاط اخرى بصدد موضوع الشبه والاختلاف بين القصة القرآنية والقصة التوراتية، هذا ما سوف يدور عليه البحث في الفصل القادم.

الفصل الحادي عشر

مقارنة بين القصة القرآنية والتوراتية: السجن، رحلات الاخوة وأثرها

من جملة ما تتفق عليه القصة القرآنية والقصة التوراتية عن يوسف، مسألة إدخاله إلى السجن كما ذكرنا سابقا. ولكن في حين أن القصة التوراتية تُرجع دخوله لكذبة ملفقة، من قبل زوجة رئيس الشرطة، تفيد بمداعبته لها، منذ رفضه دعوتها له لمضاجعتها، فالقصة القرآنية لا ترجع الزجّ به في السجن إلى ذلك الزمن، بل تكشف عن حصوله في وقت لاحق، وبعد مرور أحداث كثيرة. وهذه الأحداث ابتدأت منذ انتشار خبر امرأة العزيز في المدينة إلى وقت استقطابها بعض النسوة في تلك المدينة للضغط عليه. على أن أهمية ذلك تتجلى كالآتي: بالرغم من تكاثر الجنس النسوي من حول يوسف، وبالرغم من التهديد له بالإذلال من قبل امرأة العزيز، ظل يوسف رافضاً طلبها للمضاجعة بإباء وشمم، مفضلا بالنتيجة الدخول إلى السجن، بالرغم من ثقل قيوده، عن الخضوع للميل نحو الإغراء المستمر للمرأة من حوله. وبهذا، فإن القصة القرآنية توجه الإنسان المؤمن في كل زمان ومكان للامتثال بيوسف، حفاظا على الفضيلة، التي لا يرتقي مجتمع بدونها كما ذكر مرارا.

ولكن بالانتقال إلى نقطة اخرى، مختصة بالسجن أيضا، بالنسبة للقصتين، نرى أنه في الوقت الذي تتفق فيه هاتان القصتان بصدد لقاء يوسف مع صاحب السقاية وصاحب الطعام في ذلك المكان، وتتحدثان عن تأويله الصحيح لما رآه كل منهما في منامه عن علم، فإن القصة التوراتية لا تظهر أي نشاط آخر ليوسف في السجن. ولكن بالمقابل، فقد كشفت القصة القرآنية عن فترة تبليغ يوسف، رسم فيها كل معالم الدين الجوهرية، والمقومات الأساسية للعقيدة، وذلك بهدف:

> الدينونة لله وحده، والخضوع له وحده، واتباع امره وحده. سواء تعلق هذا الأمر بشريعة تعبدية، أو تعلق بتوجيه اخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية. فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله -

سبحانه ـ بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه..(١)

وإن أهمية تركيز القصة القرآنية على نشاط يوسف التبليغي بالسجن يرمي إلى التأكيد بأنه ـ عند توليه لشؤون إدارة خزائن البلاد بعد خروجه من ذلك المكان ـ فقد قام بمهمته «كنبي ـ ملك». وذلك لإبراز «عدله»، ورحمته بالضعفاء والمحتاجين في زمن القحط وما قبله. ولكن بالمقابل، فالقصة التوراتية ركزت على ولايته كحاكم دنيوي، استبد بالشعب وقت المجاعة، وسنتحدث عن ذلك بتفصيل في خاتمة هذه الدراسة (راجع الخاتمة).

وبالوصول إلى هذا الحد، يجب أن نذكر أنه من الفوارق الرئيسية الأخرى المختصة أيضا بحكاية يوسف وسجنه، مسألة زمن خروجه من ذلك المكان، إضافة إلى كيفية مغادرته له. إن القصة التوراتية ترجع خروجه إلى الوقت الذي أتى به رسول فرعون إليه، لتفسير رؤيا ذلك الحاكم. وبهذا تبين أن خروجه قد تم بوقت سريع:

> فأرسل فرعون ودعا يوسف. فأسرعوا به من السجن. فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون. فقال فرعون ليوسف حلمت حلما وليس من يعبره. وأنا سمعت عنك قولا إنك تسمع احلاما لتعبرها. ١٥، ١٦ الإصحاح الحادي والأربعون، التكوين.

ومن هنا، تظهر القصة التوراتية فرعون وهو يروي حلمه ليوسف من ناحية، ويوسف يفسّره له من ناحية اخرى، مؤكدا له بأن مسألة الخصب والقحط في السنوات القادمة من تقدير الله عزّ وجل، إلى أن يقول:

> فالآن لينظر فرعون رجلا بصيرا وحكيما ويجعله على أرض مصر. يفعل فرعون فيوكل نظارا على الأرض ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع. فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة،

ويخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما في المدن ويحفظونه. فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر. فلا تنقرض الأرض بالجوع. ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ الإصحاح الحادي والأربعون، التكوين.

وبموجب تلك القصة في التوراة، فقد لاقى كلامه هذا قبولا حسنا من فرعون، فاختاره للمنصب المطلوب، وقام بمسؤولية التخزين، وعمت شهرته في مصر وما حولها في زمن القحط.

ولكن بالانتقال مرة اخرى إلى القصة القرآنية، نرى أنها على العكس من القصة التوراتية، فلم تتحدث عن خروج «فوري» ليوسف من السجن حين أتاه ساقي الملك هناك. وفي الوقت نفسه، تبين القصة أن هذا الرسول نفسه، هو الذي أبلغ يوسف عن رؤيا الملك، طالبا منه تأويلها، فحقق له المراد، وبناء على ذلك، طلب الملك الإتيان، له به. على أن ذلك يشير إلى أن طلب الملك كان مبنيا على «علم»، لا على مجرد ما «سمعه» عن يوسف. ولكن يوسف رفض طلبه في هذه المرحلة، لأنه رأى أن خروجه من السجن يجب أن يكون مصطحبا بتبرئته من التهمة التي ألصقت به زورا، حين زجّ به في ذلك المكان. وهذا يعني أنه كان يطالب بمحاكمة علنية للنسوة اللاتي قطعن أيديهن في بيت امرأة العزيز. فلبّى الملك طلبه، وتبرأ يوسف من الاتهام، باعتراف عن حقيقة ما جرى، من قبل النسوة وامرأة العزيز. وعليه، فقد أفسح له المجال شخصيا لتصفية الحساب مع العزيز، وإجلاء الأمور له. وبهذا الإطار، فقد كشفت القصة القرآنية عن المزيد من أخلاقيات يوسف وطريقة تفكيره، مبرزة إياه وقت خروجه من السجن «كرجل قوي»، له اعتباره الخاص كنبي، ومكانته المميزة وعلمه العظيم. ومن هنا، فعندما تحدثت القصة القرآنية عن توقير الملك له بعد خروجه من السجن، وتقدمه باقتراح له (أي يوسف) لاختيار المنصب الذي يريده، فقد وضعت القواعد التي دعت لذلك، بالإطار العقلاني المعتمد على الدليل والبرهان. وبهذا تكون قد سلطت عليه الأضواء كرجل قادر على السيطرة على الوضع في مصر أثناء الحاجة

الماسة إليه، مع تأكيد على صدقه وأمانته وعدله كنبي. وبإبقاء هذه المعلومات في ذهننا، وعودتنا مرة اخرى إلى القصة التوراتية، نرى أن حديثها عن خروج يوسف الفوري من السجن، استجابة لطلب رسول فرعون، نفى إلى حد كبير صفة القوة المعنوية، التي أبرزتها القصة القرآنية عنه، ولذلك وضعته في صورة استبدادية كما سنتحدث عن ذلك في الخاتمة.

وبمزيد من الحديث عن موضوع المقارنة بين القصة القرآنية والتوراتية عن يوسف، في مرحلة تالية ـ مرحلة الولاية في سني القحط والحاجة ـ نجد أن القصتين تركّزان معا على وصول اخوة يوسف إلى مصر بقصد شراء الطعام، وتشيران معا إلى معرفة يوسف لهم، ولكن دون معرفتهم له. وفي الوقت نفسه، تتحدث كل من القصتين عن موضوع طلب يوسف من اخوته باحضار أخ لهم من أبيهم بعد توفير الطعام اللازم لهم، ولكن مع تهديد لضرورة تنفيذ أمره. وعدا عن ذلك، فقد تلاقت القصتان بشأن موضوع وضع يوسف اثمن الطعام في أمتعة الاخوة قبل مغادرتهم مصر إلى أرض كنعان، واكتشافهم لذلك في وقت لاحق، كما تحدثتا أيضا عن معارضة مبدئية من يعقوب لإرسال أخيهم الأصغر معهم، ثم رضوخه بالنتيجة، بعد أخذه تعهداً منهم. هذا مع العلم بأن القصة التوراتية أعطت دورا هاما لأخيهم يهوذا في هذا الصدد، وأشارت إلى توجيه طلب من يعقوب لأبنائه بأخذ هدية معهم للسيد صاحب الخزائن، ثم تتبعتهم إلى وقتِ وصولهم لمصر ـ وإعادتهم للفضة المردودة في أمتعتهم ـ إلى المسؤولين، ثم تقديمهم الهدية ليوسف. ولكن فيما يتعلق بالقصة القرآنية، فهي لم تتحدث عن إرسال هدية ليوسف بعد موافقة يعقوب على إرسال ابنه الأصغر معهم، بل تحدثت عن نصيحة الأب لهم و«رسم» طريقة الدخول لأبنائه إلى مصر. كما ذكر سابقا، فقد نصح يعقوب أولاده بعدم الدخول كمجموعة من باب واحد، بل الدخول بشكل متفرق من أبواب عدة، مع إعلامهم بأن هذا عمل وقائي.. لا يغني عنهم من الله من شيء، فله الحكم، وعليه التوكل. ويجدر التكرار هنا، إلى أن لهذه النصيحة أهمية خاصة في القصة القرآنية، وقد جاءت لتذكّر الإنسان بأن ما حصل بصدد لقاء الأخوة مع يوسف، مع ما داخل اللقاء من أحداث،

وما سيداخله منها، لم يأت من قبيل الصدفة، بل أتى عن تخطيط إلهي. وذلك ليعلم الإنسان أن التخطيط البشري للشر واهٍ وهزيل، ويتقهقر دوما أمام التخطيط الإلهي المحكم، الذي يأتي بمراحل تعتمد كلها على أسس تامة من حيث الإحكام في البناء، وبذلك، فالقصة القرآنية تركز، بشكل قوي للغاية، على الدور الإلهي في تعديل الموازين، في حين أن التركيز التوراتي قليل في هذا الصدد. على أن ذلك يعطي مزيدا من الدلائل على عرض أحداث القصة القرآنية بالإطار الأزلي، كما هوالحال بصدد كل ما ورد في القرآن الكريم.

ولكن لنتحدث الآن عما جرى بعد عودة الاخوة لمصر، وبنيامين معهم، بموافقة والدهم. تبين كل من القصتين أن اللقاء كان مثيرا، ولكن بينما تركز القصة القرآنية على ثبات يوسف وطمأنته لأخيه عند الكشف له عن هويته، تتحدث القصة التوراتية عن دخول يوسف للمخدع وبكائه لمجرد رؤياه لأخيه، ثم خروجه من هناك وتجلده: «واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكانا ليبكي. فدخل المخدع وبكى هناك ثم غسل وجهه وخرج وتجلد. وقال قدموا طعاما». ٣١، ٣٢ الإصحاح الثالث والأربعون، التكوين. ولكن بعد ذلك تتفق القصتان بصدد وضع كأس الملك في متاع بنيامين، ثم استخراجها من متاعه هذا، بعد عملية تفتيش، ومن ثم إصدار قرار بإبقائه في مصر جزاء له. وبينما تتحدث القصة القرآنية، عند هذه النقطة، عن مساعي الأخوة لمنع ذلك، من خلال استبداله بواحد منهم الأخ الأصغر، تتحدث القصة التوراتية عن مساعي خاصة بيهوذا في هذا الصدد، على أساس أنه أعطى عهدا لوالده بإرجاع أخيه، مشيرة في الوقت نفسه، إلى إصرار منه على استبداله به. وقد قدمت القصة التوراتية حديث يهوذا إلى يوسف في إطار عاطفي، تغلغل إلى وجدان يوسف، فأفقده القدرة على مزيد من التكتم فعرّف اخوته بنفسه:

> فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ أخرجوا كل انسان عنّي. فلم يقف احد عنده حين عرّف يوسف اخوته بنفسه. فأطلق صوته بالبكاء. فسمع المصريون وسمع بيت فرعون. وقال

يوسف لأخوته انا يوسف. ١، ٢، ٣ الإصحاح الخامس
والأربعون، التكوين.

وهكذا، وبموجب القصة التوراتية، فقد أتى تعريف يوسف بنفسه لأخوته في إطار «سريع» نوعا ما، ولكن التعريف هذا لم يأت بهذه السرعة في القرآن، ولا حتى بهذا الاسلوب. فالقصة القرآنية كشفت عن رفض يوسف لمساعي الأخوة لاستبداله بالأخ الأصغر واحداً منهم، على أساس أن القصاص لا يسري إلا على من وجد المتاع عنده لإقرار العدل «قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون»، والقصد هنا، هو التركيز على إقرار العدل من جانب يوسف في مجال الإدارة، حتى ولو أن الأمر جاء كتنفيذ لمخطط. أما بصدد قرار الأخ الأكبر بالبقاء في مصر، بسبب إبقاء يوسف على أخيه الأصغر فيها، فكان القرار من اختياره وهنا تظهر القصة القرآنية عودة اخرى لأخوة يوسف التسعة إلى أبيهم. ونحب أن نذكر هنا، أن تخطي القصة القرآنية للقصة التوراتية بهذه المرحلة من ذهاب الأخوة إلى أرض كنعان، أمر في غاية الأهمية على نطاق روحي وأخلاقي. فالقصة تبين هنا أنه عند التلاعب بمصير إنسان بريء (القذف بيوسف بالبئر وتعريضه لسلسلة متلاحقة من المحن) لا يمكن للأمر أن يمر دون حساب، ويدرك الكائدون من خلاله فداحة ما فعلوه، عند الكشف لهم عن هوية المعني بالأمر في وقت لاحق. على أن ذلك لن يشكل رادعا له للكف عن عمل مثل هذه المكائد مستقبلا فحسب، بل ويدفعهم إلى الاعتراف الصادق بالخطأ، وطلب المغفرة، ومتابعة حياتهم بواقعية جديدة في الوقت المناسب. إن الذي يعرف معنى المعاناة الحقيقية، بعد أن كان قد تسبب في إحداث معاناة جارفة للغير، يتزود بالقوة المعنوية التي تزوده بالشجاعة اللازمة للاعتراف بالخطأ وطلب الغفران. وهذا ما دعا اخوة يوسف للقول له بعد أن عرفهم بنفسه: «قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»:

أما بالنسبة للموقف التوراتي لما يتعلق بمسألة الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة، فالقصة لا تبيّن إقدام الأخوة على مثل هذا الاعتراف، عندما كشف لهم يوسف عن

حقيقته، كما هو الحال في القصة القرآنية. ومع أن القصة في التوراة تظهر أن اخوته تكلموا معه عندئذ، بصدد «امر ما» بعد مشهد عاطفي، فإنها لا تبيّن في الواقع محتوى ذلك الكلام، كما نرى في النصوص الآتية:

> ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى. وبكى بنيامين على عنقه. وقبّل جميع اخوته وبكى عليهم. وبعد ذلك تكلم اخوته معه. وسمع الخبر في بيت فرعون وقيل جاء اخوة يوسف. فحسن في عينيّ فرعون وفي عيون عبيده. ١٥، ١٦، ١٧ الإصحاح الخامس والأربعون، التكوين.

وإضافة إلى ذلك، فالقصة التوراتية لا تظهر صفاء في النفوس، وثقة أكيدة من كلا الجانبين، يوسف، واخوته من أبيه بالرغم من العواطف المبينة أعلاه. فمثلا عندما أرسل يوسف اخوته لإحضار أبيه، أوصاهم بعدم التغاضب في الطريق:

> ....وقال لهم لا تتغاضبوا في الطريق. فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم. وأخبروه قائلين يوسف حي بعد. وهو متسلط على كل أرض مصر. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم. ٢٥، ٢٦، ٢٧ الإصحاح الخامس والأربعون، التكوين.

وبمقابل ذلك، فعدم ثقة الأخوة بيوسف تظهر من العبارات التالية التي أدلوا بها بعد موت أبيهم:

> ولما رأى اخوة يوسف أن أباهم قد مات قالوا لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذي صنعنا به. ١٦ الإصحاح الخمسون، التكوين.

ولخوفهم هذا من يوسف بعد طول أحداث، وإذ بهم يخبرونه بوصية والدهم له، يحثه فيها على الصفح عنهم، بالرغم مما صنعوه به (أي يوسف) من شرّ:

> فأوصوا إلى يوسف قائلين أبوك أوصى قبل موته قائلا. هكذا تقولون ليوسف آه إصفح عن ذنب اخوتك وخطيتهم فإنهم صنعوا بك شرا فالآن اصفح عن ذنب عبيد إله ابيك. فبكى يوسف حين كلموه. ١٧، ١٨ الإصحاح الخمسون، التكوين.

وتحت «ستار» هذه الوصية الصادرة عن يعقوب ليوسف بموجب القصة التوراتية، اعتذر الاخوة له، واعترفوا له بالتفوق عليهم من حيث المركز الدنيوي:

> وأتى اخوته أيضا ووقعوا أمامه وقالوا ها نحن عبيدك فقال لهم يوسف لا تخافوا. ١٩، ٢٠ الإصحاح الخمسون، التكوين.

من مجمل ما تقدم نستطيع أن نتوصل إلى الحقيقة التالية بصدد القصتين: بينما تضافرت أكثرية أحداث القصة القرآنية لتسلط الأضواء على مبدأ تحصين اخوة يوسف بالقوة المعنوية اللازمة للتقدم والاعتراف، في الوقت المناسب، بعدم صواب ما فعلوه به في الماضي، فقد جاء ذلك متأخرا بالنسبة للقصة التوراتية، وتحت ستار "وصية يعقوب كما يظهر اعلاه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك يعني من ناحية المبنى القصصي، وجود «وحدة» عضوية متكاملة في القصة القرآنية على الرغم من ترك فراغات فيها ترمي إلى الإثارة الفكرية، ولكن، بالمقابل، فالقصة التوراتية تتصف بوجود بعض التضعضع في الوحدة تلك، في الجزء الأخير منها. ولا بأس أن نذكر عند هذه النقطة، أنه بعد حديث القصة في التوراة عن مسألة حضور يعقوب وأهله إلى مصر، اتجهت لإعطاء اهتمام كبير للإخبار عن أسماء بني إسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر، ثم تحدثت عن استقبال يوسف لأبيه، وعن مباركة يعقوب لفرعون.. ثم اتجهت للتركيز على موضوع استبداد يوسف في المجال الإداري ومواضيع اخرى انتهت باعتذار الاخوة ليوسف، والاعتراف له بالعلو في الأرض كما ذكر أعلاه.

الخاتمة

حتى الآن، لقد تم التركيز في الفصلين الأخيرين على «تعريف» لقصة يوسف كما وردت بالتوراة، مع اقامة «مقارنة» بين القصتين التوراتية والقرآنية. على أنه في مجال الخوض بهذه المقارنة، فقد تحدثنا عن نقاط «تشابه» في القصتين مقابل «فوارق» أساسية، ومن هذه الفوارق الأساسية بين القصتين، مسألة علاقة يوسف مع فرعون والناس عند توليه لمنصب رئيس الخزائن في مصر.

وفيما يتعلق بالقصة القرآنية، فقد ذكرنا سابقا أن تلك القصة لا تتحدث عن كيفية استثمار يوسف لعلاقته مع صاحب السلطة العليا، وكل ما تشير إليه هو أنه وضع مواهبه تحت تصرف فرعون، ولكنه استثمرها في خدمة الضعفاء والمحتاجين من الناس وفي التخفيف عنهم، وتوفير ما يحتاجون إليه من الطعام على أساس التجارة. على أنه يجب أن نضيف هنا، بأن القصة الواردة في التوراة انطلقت بعد ذلك إلى مجال مختلف من العلاقات ومستوى جديد من مستويات ممارسة السلطة. ويمكن القول، إن شخصية يوسف التي تتبدى الآن، وفي هذه المرحلة الجديدة من حياته، هي شخصية مختلفة تماما. وهذه القصة الواردة بالتوراة تتحدث عن نوعين من العلاقات التي وجد يوسف نفسه مشتبكا بها، فهنالك، من ناحية، علاقته بفرعون صاحب السلطة، وهنالك، من ناحية ثانية، علاقته بالناس إبّان حاجتهم القصوى إلى المعونة التي تستطيع السلطة أن تقدمها إليهم. وقد حُقق الآن ما توقعه يوسف، اذ انقضت سنوات الوفرة والمحاصيل الجيدة، وقام هو من جانبه بتخزين فوائض هذه المحاصيل انتظارا لسنوات الجفاف. وها هي أولى سنوات الجفاف تهل، ها هم الناس يأتون إليه طالبين ما هو متوافر في مخازنه من الحبوب والمحاصيل. ويمكننا أن نتصوّر أن يوسف، الذي ترسمه هذه الحكاية، كان قد رسم في ذهنه خطة كاملة للتعامل مع هذا الوضع، بينما القصة التوراتية تبيّن أنه في السنة الأولى

استطاع يوسف أن يجمع «كل الفضة الموجودة في أرض مصر وفي أرض كنعان». ١٥ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين، وذلك كان ثمناً للقمح الذي باعه إلى أهالي مصر وكنعان. فماذا فعل في هذه الفضة؟ تقول القصة التوراتية إن يوسف جاء «بالفضة إلى بيت فرعون». ١٥ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين. ومن هنا، نلحظ أن يوسف قد وضع نفسه في جانب فرعون وبدأ عملية تمكّن فرعون، أي تمكّن السلطة، من احتكار الثروة من فوق رؤوس الناس جميعا لتتم بذلك احتكارها للقوة. وتمضي الحكاية لتبيّن أنه لما:

> .... فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين أعطنا خبزا. فلماذا نموت قدامك، لأن ليس فضة أيضا. فقال يوسف هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم إن لم يكن فضة أيضا. فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف. فأعطاهم يوسف خبزا بالخيل وبمواشي الغنم والبقر وبالحمير. فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم. ولما تمت تلك السنة أتوا إليه في السنة الثانية وقالوا له لا نخفي عن سيدي أنه اذ قد فرغت الفضة ومواشي البهائم عند سيدي لم يبق قدام سيدي إلا أجسادنا وأرضنا. لماذا نموت أمام عينيك نحن وأرضنا جميعا. اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيدا لفرعون. واعط بذارا لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضنا قفرا. ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ الاصحاح السابع والأربعون، التكوين.

ومن خلال هذه العملية الابتزازية المتكررة التي تبرزها النصوص المذكورة أعلاه، نجد يوسف وقد عامل الناس بغير شفقة ولا رحمة، وليس ثمة أقراض أو تأجيل للدفع، بل هنالك «مقايضة» مباشرة. فالناس من طرفهم كلما جاؤوا إليه لا يكتمون عنه - وهو أدرى بما يقولون - إن ضبط خيارهم هو ما بين الحصول على الخبز الموجود لديه أو الموت أمام عينيه. فكان، كما تظهر القصة التوراتية، في كل

مرة يفرغ من بين أيديهم عاملا من عوامل الثروة والاستقلال وحرية التصرف. ففي المرة الأولى أخذ منهم كل ما لديهم من نقود، أي كل ما يملكون من ثروة سائلة، وفي المرة الثانية، أخذ منهم كل الحيوانات والبهائم التي تشكل وسائل الانتاج التي يستخدمونها لزراعة أرضهم. وفي المرة الثالثة، لم يبق لديهم سوى الأرض نفسها وسوى أجسادهم.. فإنه يشتري تلك الأرض، ويتملك تلك الأجساد ويحوّل الناس إلى عبيد:

> فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون. اذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم. فصارت الأرض لفرعون. واما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه. إلا أن أرض الكهنة لم يشترها. اذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون. فأكلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعون، لذلك لم يبيعوا أرضهم. ٢، ٢٢، ٢٣ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين.

وهنا نرى أن التحالف القائم ما بين فرعون، «السلطة»، والكهنة «الكنيسة» قد أصبح الواسطة التي يثبت بها فرعون احتكاره للثروة وللسلطة ولامتلاكه لكل وسائل الانتاج بما فيها الموارد البشرية. وفي نهاية الأمر، فالقصة التوراتية تبيّن أن يوسف كان يستغل ما فعل لتأكيد امتلاك فرعون للناس والأرض. «فقال يوسف للشعب إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون»، ٢٤ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين. وبعد ذلك، يعطيهم البذار ليزرعوا الأرض، اذ ما فائدة أرض غير مزروعة لفرعون وغيره؟ كما يفرض عليهم خمس المحصول (٢٠٪) ضريبة لفرعون، تاركا لهم باقي المحصول بذارا للحقل، وطعاما لهم، ولمن في بيوتهم ولأولادهم، كما ورد في النصوص الآتية:

> ويكون عند الغلة إنكم تعطون خمسا لفرعون. والأربعة أجزاء تكون لكم بذارا للحقل وطعاما لكم ولمن في بيوتكم وطعاما لأولادكم. ٢٥ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين.

وبذلك، فالقصة التوراتية تظهر يوسف وهو يتعامل مع الانسان وكأنه مجرد أداة للانتاج، لا وظيفة له سوى استمرارية عملية الانتاج «بذارا للحقل»، وتوفير الكفاف لشخصه ولعائلته وأولاده. فيفرح هؤلاء الناس في أنهم عبيد لفرعون صاحب السلطة، ويجدون في الكفاف الذي أبقاه لهم «نعمة» أو «مكرمة» من المكارم التي يجود بها صاحب السلطة، كما يظهر في النصوص الآتية:

> فقالوا أحييتنا، ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيدا لفرعون. فجعلها يوسف فرضا على أرض مصر إلى هذا اليوم لفرعون. ٢٦، ٢٧ الإصحاح السابع والأربعون، التكوين.

نلحظ في هذا السرد محاولة لتنفيذ ما يسمى في عرف هذه الأيام «بالهندسة الاجتماعية». ونرى أن خيوط هذه الهندسة تتألف من العناصر الآتية: أولا، إعادة تجميع الناس في المدن على حساب القرى لتسهيل السيطرة الأمنية عليهم. ثانيا، حصر موارد الانتاج بيد السلطة - لتستطيع من خلال تملكها لهذه الموارد - أن تتحكم تحكما كاملا في قوت الناس وأرزاقهم، وتحد بذلك أي حرية لهم، إذ يخافون أن تفوتهم تلك الأرزاق، اذا لم يسايروا السلطة مسايرة كاملة. ومن ثم فإن السلطة تفرض على الناس ضريبة عالية، لا تبقي لهم من مجموع إنتاجهم إلا الكفاف الذي يقيهم من الجوع. وعلى قمة المجتمع، تحالف ما بين السلطة «فرعون»، والكنيسة «الكهنة». ولا نلمح في هذا التصميم الهندسي أي أثر لمحاولة «فردوسية» تعد بكمال مجتمعي على غرار الفردوسيات التي عرفها الانسان ابتداء من «جمهورية أفلاطون» وفي شيوعية كارل ماركس ولينين. وكم نلمح في إجراءات يوسف، في التوراة، من تجارب تمت أمام أعيننا، وفي عصرنا، سواء في كمبوديا حيث هجر سكان الأرياف إلى المدن، أو في بلاد صادرت فيها الدولة كل ما يملكه الأفراد من وسائل كالسيارات، «الخيل والحمير»، ومن بيوت، لتحقيق الغرض نفسه، من تجريد الانسان القدرة المستقلة على العيش وذلك لإبقائه عبدا للدولة ولصاحب السلطة.

لائحة المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الكتاب المقدس

٣ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**. جزء ٣. القاهرة: لجنة البيان العربي، لا. ت.

٤ ـ ابن عربي، محي الدين. **تفسير القرآن الكريم**. جزء ١. بيروت دار الاندلس، ١٩٧٨.

٥ ـ ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، جزء ٢. بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠.

٦ ـ ـــ. **قصص الأنبياء**. عمان: مكتبة دار الثقافة، ١٩٨٩.

٧ ـ البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي. **انوار التنزيل واسرار التأويل**. دار الفكر، ١٩٨٢.

٨ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس. **كتاب مجموعة من التفاسير**. بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت.

٩ ـ حجازي، محمد محمود. **التفسير الواضح**. جزء ١١. دار التراث العربي، ١٩٧٨.

١٠ ـ خان، صديق حسن. **فتح البيان في مقاصد القرآن**. جزء ٥. القاهرة: مطبعة العاصمة، لا. ت.

١١ ـ الخطيب، عبد الكريم. **التفسير القرآني للقرآن**. جزء ١٢. بيروت. دار الفكر العربي لا. ت.

١٢ ـ دروزة،، محمد عزة. **التفسير الحديث**. جزء ٤. القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، لا. ت.

١٣ ـ الرازي، الفخر. **التفسير الكبير**، جزء ١٧. بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت.

١٤ ـ رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**. جزء ١١. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، لا. ت.

١٥ ـ الزحيلي، وهبة. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**. جزء ١١. بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩١.

١٦ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **الدر المنثور في التفسير المأثور**. بيروت: دار المعرفة، لا. ت.

١٧ ـ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير**. جزء ٣. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لا. ت.

١٨ ـ الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**. جزء ٢. الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨١.

١٩ ـ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. جزء ١٣. بيروت دار مكتبة الحياة، ١٩٦١.

٢٠ ـ الطبري، أبو جعفر بن جرير. **جامع البيان في تأويل آي القرآن**. جزء ١٢. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٤.

٢١ ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **احياء علوم الدين**. جزء ٤. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لا. ت.

٢٢ ـ قطب، سيد. **في ظلال القرآن**. مجلد ٤. القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩.

٢٣ ـ المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد، والسيوطي. **تفسير الإمامين الجلالين**. مصر: شركة الشمولي للطبع والنشر، ١٩٧٧.

٢٤ ـ النجار، عبد الوهاب. **قصص الانبياء**. بيروت: دار الجيل، لا. ت.

مقالات

٢٥ ـ الدجاني، زاهية راغب. «الاعتقاد بالعين الحاسدة. خرافة تتناقض مع الحقيقة القرآنية والمعايير العقلانية والفضائل الاخلاقية .. وتؤدي لا محالة للانحدار الحضاري». **الدستور** (٣١ تموز، ١٩٩٢).

الفهرس